منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

أمير تاج السر

قلم زينب

THE PEN OF ZAYNEB





سيرة روائية

قلم زينب

THE PEN OF ZAYNEB



قلم زينب

THE PEN OF ZAYNEB

سيرة روائية

أمير تاج السر

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING



الطبعة الأولى
1435 هـ - 2014 م

ردمك 978-614-02-1153-7

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions. elikhtilef@gmail. com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
هاتف الرياض: 966509337722+
هاتف بيروت: 9613223227+
editions. difaf@gmail. com



تحية للأخ الأكبر شوقي بدري..

من حكاياته تُستلهم الحكايات.



لا تقولوا كان رجلًا يصنع الأفكار،

ولا كان يدَّعي الحكمة،

قولوا فقط كان رجلًا طيبًا.

من الشعر الإسباني



1

أول مرة رأيتُ فيها (إدريس علي)، ذلك النحيل، الذي سيربكني أشهرًا طويلة بعد ذلك، كان في حي النور الشعبي، في الجانب الشرقي من مدينة بورتسودان الساحلية، حيث نشأت ودرست أغلب مراحلي التعليمية الأولى، وكوّنت مسيرة حياة ما تزال ماضية حتى الآن.

كنتُ قد أكملت تدريبي الطبي الشاق، في كافة فروع الأمراض، داخل مستشفى المدينة الكبير، لأصبح طبيبًا عامًا، يتقافز بين الجراحة والباطنية، وطب الأطفال، والأمراض الجلدية، والنساء والتوليد، لكنّي اخترت القسم الأخير، أو اختارني، لأعمل فيه حتى أنال تخصصًا. وكان لا بد من عيادة مسائية في واحد من تلك الأحياء البعيدة عن نظر الأخصائيين، لزيادة الدخل وملء إحساس الطبيب بأنه يملك مهنة جذابة وذات عائد، بعد سنوات الدراسة الطويلة التي أنهكت موارد الأسرة. صنعت ختمًا خاصًا بي في واحدة من ورش الخشب المنتشرة في المدينة، وعدة دفاتر من الورق الأملس عليها اسمي، واسم جامعتي التي تخرجت فيها، في مطبعة رخيصة، وظللت أدور بختمي وأوراقي، وعربة

والدي الصغيرة من ماركة كورولا، بين عيادات زملائي القدامى، أغطي غيابهم المؤقت إن غابوا، أو استلف منهم أيامًا متفرقة، يساعدني إيرادها القليل على منصرفاتي، لكن ذلك لم يكن يرضيني، وما زلت بلا اسم ولا بريق ولا عربة خاصة، أستخدمها وحدي، وحين أشاء.

كان عز الدين موسى، أحد مساعدي تحضير العمليات القدامى، الذين عملوا معي أثناء التدريب، وتعلمتُ منهم كثيرًا من الحيل، يسكن في حي النور البعيد، وكان قد أنشأ في بيته منذ فترة طويلة، عيادةً بمواصفات الحي نفسه، لا غرفة مصبوغة بعناية، لا أثاثًا جيدًا مريحًا، لا كهرباء تبرز الاسم على لوحة مضيئة، ولا حتى طريق نظيف بلا حفر تشقه العربة حتى تصل.وكان قد تعاقب على عيادته تلك عدد كبير من الأطباء الذين عملوا في الساحل، يجلسون عليها سنوات أو أشهرًا، أو أيامًا معدودة، ثم يذهبون. بعضهم إلى تخصص يختاره، وبعضهم إلى هجرة يهاجرها، وقد يترك بعضهم المهنة تمامًا، ويتفرغ لأعمال أخرى مثل التجارة والسمسرة، والعمل السياسي.

حدَّثني عز الدين بأمر تلك العيادة بعد أن خلت ذات يوم بحصول شاغلها الأخير، وكان اسمه(الماحي)، على عقد عمل في دولة عربية خليجية، وسافر على الفور، حدَّثني عن ازدحامها الشديد، وزبائنها الذين بلا حصر ويترددون عليها منذ سنوات طويلة، ودخلها الذي لا يتوفر حتى لكبار المتخصصين، أصحاب اللافتات اللامعة المضيئة في وسط المدينة وانسقت خلفه حتى



قبل أن أرى الموقع، وأقرر إن كان يصلح عيادة حقيقية أم لا؟.
اشتريت مولدًا صغيرًا مستعملًا للكهرباء من هنديٍّ اسمه برد شاندرا، كان من بقايا هنود المدينة الذين قطنوها منذ زمن بعيد، واستعمروا تجارتها خاصة في مجال القماش والحلويات، وتموين السفن، كان يتاجر بالمولدات الكهربائية وآلات التكييف والتدفئة والمراوح، في محل بلا اسم يملكه وسط المدينة، وكان جافًا، وعدائيًا ويقسم بالطلاق ثلاثًا في كل وقت، وعند مناقشة أي مشترٍ، أسوة بالتجار جميعهم، حتى لو كانوا هنودًا بوذيين، وباعني سلعته المستعملة، بمبلغ كبير لم أكن أملكه حقيقة واستدنته من أحد الزملاء القدامى، بالرغم من أنني ذهبت إليه برفقة أحد أقاربه. وجلسنا أنا وعز الدين موسى الذي يعمل أيضًا ممرضًا بالعيادة، إضافة إلى ملكيتها، بعد ذلك أيامًا قاربت الشهر، على كرسيين قديمين من البلاستيك المقشَّر، أمام باب العيادة بلا عمل، نتابع الزحام الذي يتخبط في الظلام أمامنا، ويحدثني عن زبائن بلا عدد سيأتون حتمًا في أحد الأيام، منساقين وراء لافتة النيون التي أضاءت بمولِّد برد شاندرا، لأول مرة منذ أن افتتح العيادة، وكانت اللافتة من قبل، تضاء بالفوانيس، أو تترك بلا إضاءة، وأحدثه عن خيبة الأمل التي أحسها، ولا تفارقني في أي وقت من أوقات يومي، وكان ينهض متوترًا كلَّما لمح ظلًا في الطريق، يقترب منا، أو سمع صراخًا في بيت قريب، أو تعثر أحد المارة بحجر وسقط، ثم يعود إلى جلسته بتوتر أكثر حين يتجاوزنا الظل إلى بعيد أو يسكن الصراخ، وينهض المتعثر من سقطته



ويمضي، واضطُر في أحيان كثيرة وتحت وطأة ثقل الضمير أنه ورطني بلا معنى، وأيضًا شح المال عندي وعنده، أن يجوس بقدميه في الحي، يطرق بيوتًا عديدة يعرف أن فيها مرضى مزمنين، ويعرض عليهم خدمات طبيبه الجديد البارع بأجرة تافهة. وكانت ثمة استجابات طفيفة، أو لا استجابات على الإطلاق.

وصادف أن جاء في تلك الأيام مندوبون عديدون من مصلحة الضرائب وإدارة الزكاة وشؤون الأيتام والقصَّر، وجمعيات الأعمال الخيرية، سعيًا وراء صيد ثمين، لم يعثروا عليه عندي، وسجَّلوا على أوراقهم ودفاترهم، دخول وخروج عيال عز الدين وأقاربه الزائرين الذين كانوا يستخدمون باب العيادة المفتوح على البيت، في تنقلهم إلى الطريق، وقالوا إنهم حتمًا سيعودون ويسجلون المزيد، ويطالبونني بتسديد ضرائبي الوطنية آخر العام.

في أحد الأيام وتحديدًا في يوم سبت بدأ هادئًا كالعادة، أخرجنا فيه كرسيينا المقشرين، وتهيأنا للجلوس أمام الباب، بدأ الزبائن يأتون واحدًا تلو الآخر، فقراء وشاحبين، ولا تبدو على جلابيبهم البيضاء المعكرة بالغبار، أو سراويلهم الممزقة، وعمائمهم التي بلون الصدأ، آثار نعمة أو مال سيدلقونه عندي، جاء أصحاب ضغط الدم ومرض السكر والملاريا والتايفود والنزلة المعوية وغيرها من أمراض الفقر وسوء التغذية، جاءت النساء الحوامل والنساء المرضعات، والنساء عاشقات عيادات الأطباء بلا مرض محدد، جاء الأطفال بالكساح والعمى الليلي، وتآكل الأسنان، وجاء (إدريس علي) وسط تلك الفوضى المرضية، ليس



مريضًا عاديًا كما كنتُ أتوقع، ولكن صديقًا قسريًا، سيصادقني بعد ذلك حتى الجنون، يدخلني دهاليز لم أكن أظن أنني سأدخلها يومًا، بالرغم من أنني لم أشاهده إلا مرات معدودة..وكانت مشاهدات عابرة لا ترتقي حتى لمستوى المعرفة البسيطة.



2

- السلام عليكم.. أنا (إدريس علي).

رفعتُ رأسي، أتأمل الرجل الذي يقف أمامي شابكًا كلتا يديه على صدره، ومبتسمًا عن أسنان بيضاء كاملة على فكيه. كان شابًا في أوائل الثلاثينات من العمر، نحيلًا بشكل لافت حتى ليبدو بلا لحم، شعره منكوش إلى أعلى، لكنَّه منسق وعليه زيت لمَّاع، يرتدي زي جنود الصاعقة المرقَّع، الذي كان موضة سائدة في تلك الأيام، أحدثها الهياج الدائر في حرب الجنوب، وما تبعه من عسكرة للأجواء والأمزجة والشوارع وشاشة التليفزيون، وطوابير الصباح في المدارس. حول معصمه الأيسر ساعة من ماركة جوفيال العتيقة تبدو ميناؤها باهتة، ويضع على جسده عطر (ماكسي) النفاذ الذي كان منتشرًا أيضًا، ويستخدمه الرجال الأنيقون وغير الأنيقين.

رددت على تحيته: وعليكم السلام.

دعوته للجلوس حتى أستمع إلى شكواه، ثم أرقده على طاولة الفحص كما أفعل بشكل آلي عند رؤيتي لكل مريض، فجلس واضعًا ساقًا على ساق، وكان حذاؤه من ماركة باتا، قديمًا جدًا،



ومتناسل الخيوط، لكنَّه يلمع بورنيش طُلي به حديثًا، وربما قبل دقائق من قدومه إلى عيادتي.

سألته عن علَّته كما هو مفترض في شخص يطرق عيادة طبيب، لكنَّه رد وهو يتحسس جسده بيديه ويستعيذ بالله من كل شر، بأنه ليس مريضًا بأي شيء، ولا يذكر حتى أنه أصيب بصداع أو انفلونزا عادية من قبل، وإنما زائر جاء لتحية الطبيب الجديد في الحي، وإكرامه والتعرف إليه أكثر، خاصة أنه قرأ على لافتتي المضيئة بالنيون، والمكتوبة بخط أحمر أنيق، عند خطاط متمرس، أنني تخرجت من مصر، وهو أيضًا تخرج من هناك، حيث درس في معهد اللاسلكي الشهير بالقاهرة، في شارع مجلس الشعب، ذلك المعهد الذي أجزم أن ثلث الشعب السوداني في ذلك الوقت، قد تخرَّج فيه. بدأ بسؤالي عن فترة دراستي في مصر، وأين كنتُ أسكن، وكيف كنتُ أقضي أمسياتي، وعطلات نهاية الإسبوع، وإن كنت قد زرت الفيوم، والقناطر الخيرية، ومقاهي حي الحسين، وركبت عربة الحنطور في منطقة الأهرامات، ثم عرج على أشخاص ربما أعرفهم أو صادفتهم أثناء وجودي هناك: شوقي دلدوم عازف الكمان الأعمى الذي يُلقّب بالمايسترو.. أبو الرمل صاحب أجمل صوت غنائي بين الطلاب بالرغم من تهتهته في الحديث العادي، سبيل الذي أنشأ عصابة لكسر المنازل في الأحياء الراقية، ودوَّخ الشرطة المصرية.. تونة الحلوة التي سحرت الجميع بابتسامتها وعينيها وشعرها المموَّج والتصق بها مواطن خليجي صادفته هناك، سميرة درداق، أول راقصة سمراء يعرفها



الساهرون في الملاهي الليلية، ويرمون عليها (النقوط) ببذخ، عصام الملقَّب بالبيضة لأنه لا يأكل إلا البيض المسلوق، وشكراوي الذي يبيع الأقلام الجافة وأمشاط الشعر، وفرش الأسنان في ميدان التحرير، وكانت بالطبع أسماء غريبة ومريبة لم أسمع بها قط من قبل. قال أنه رجل أعمال بسيط يتاجر في بضائع شتى يجلبها من العاصمة وبلاد الخليج العربي وتايوان، ولا يقيم في حي النور لكنَّه يأتي بشكل شبه يومي، يزور أقاربه العديدين الذين يقطنون في الحي ويروِّج لتجارته وسط تجار السوق الشعبي. كان غريبًا حين أمسك بسماعتي الطبية التي رافقتني طوال سنوات دراستي، وخاضت معي الدروس العملية، والامتحانات، ومدة التدريب في المستشفى، وما زالت تعمل بإخلاص، تفحَّصها بتأنٍ وقلَّل من شأنها باعتبارها من صناعة الصين، حين مشى إلى طاولة الكشف الموضوعة في أحد أركان الغرفة، نقر على خشبها القديم بقوة، رفعها وأنزلها، ورفعها وأنزلها، ورجَّها، وهو يردد: طاولة بلا حيل..سأجعل هارون الشقي يصنع لك واحدة أجود منها، لم يعلِّق على الستائر لأن الغرفة كانت في الواقع، بلا ستائر، ولا ألقى بالًا على خزانة الزجاج التي استحدثتها في الغرفة، ووضعت بها بعض نماذج الأدوية المجانية التي قد أمنحها لمرضى محتاجين، ولم أكن واثقًا إن كان قد التفت أم لا إلى تلك الصورة الباهتة المعلَّقة أعلى رأسي، وتمثل عز الدين موسى في شبابه المبكر، يتسلَّم شهادة التمريض من رجل معمم لا بد أنه كان مسؤولًا كبيرًا في ذلك الزمان، وحين تأهب للخروج من

غرفتي بعد أن قضى قرابة نصف ساعة في حديث متفرع، ولمح عز الدين يطل برأسه من الباب عدة مرات، وعلى وجهه غضب ما، ويرسم بأصابعه عدد المرضى المنتظرين بالخارج، أخرج من جيبه قلمًا سائلًا أسود اللون، بلا ماركة محددة، من ذلك النوع الذي تعثر عليه في الأسواق الشعبية، وأمام المدارس، ومقالب القمامة، وضعه أمامي على الطاولة، وهو يردد:

- هدية بسيطة ستتبعها هدايا أخرى في المستقبل، أرجوك اقبلها من أجل زينب..أرجوك.. من أجل زينب.

ثم انفلت خارجًا من دون أن يترك لي فرصة الرفض، أو يخبرني عن زينب التي يجب أن أقبل هديته الرخيصة من أجلها.

كان عز الدين لا يعرف شيئًا عن (إدريس علي)، ولا شاهده من قبل في الحي أو العيادة أثناء وجود طبيب آخر بالرغم من سكناه القديمة في الحي واحتكاره لختان الذكور وتنظيف الجروح، وفتح الدمامل فيه، على مدى خمسة وثلاثين عامًا، وأخبرني بأنه وقف أمامه بثقة، أخبره بأنه صديق قديم للطبيب، درسا معًا في مصر، ومن ثم سمح له بالدخول مباشرة من دون انتظار أو أجرة للكشف، كما تقضي اللياقة، وأنه يعتذر إن كان ذلك الغريب قد أزعجني، ونفيت ذلك بشدة، ثم واصلنا العمل.

بعد ذلك نسيتً أمر إدريس تمامًا، انشغلتُ بمرضى عديدين دخلوا بعده، وكان فيهم رجل مسن اسمه سيد أحمد، عمل بحَّارا في سفن تجارية لعدة دول منذ شبابه المبكر، واكتشف بعد ستين عامًا من السفر، وعشق البحر ولعب الورق، والتسكع في الموانئ



المختلفة، وملاحقة الحسناوات على الأرصفة، أنه بلا زوجة ولا عيال يرثون ما جمعه من مال، ويملأون بيته الكبير الذي بناه مؤخرًا في الحي، وجاء يستشيرني إن كان بمقدوره أن يتزوج وينجب وهو في الثمانين. كان ضغط دمه عاديًا، معدَّل السكر في البلازما، الذي أجراه في مختبر طبي وسط المدينة، عاديًا جدًا، يده قوية حين هزت يدي في التحية، ومشيته صلبة بلا ترنح حين دخل إلى الغرفة، وحين خرج منها، لكني بالرغم من ذلك لم أطمئنه، خفت من مسؤولية غرسه في زواج قد يكون بلا جدوى، وأرسلته إلى مختص في تلك الأمور، وخرج وأسمع من خلف الباب الموارب للغرفة صوت امرأة شابة يسأل: هل طمأنك؟.. وفكرت أنها ربما تكون المرأة الموعودة بالزواج والإنجاب.

بعد ذلك عاينتُ امراة اسمها نجفة، وكانت بعيدة تمامًا عن النجف وأضوائه الموحية، في نحو الخمسين أو أزيد قليلًا، ترتدي ثوبًا بسيطًا من قماش البوليستر، بلا كي وذهبًا محدودًا على الساعدين وتضع على أذنيها أقراطًا رخيصة من الزجاج الملون، وكانت تشكو من صداع نصفي مزمن أرهقها منذ عشرين عامًا، بعد زواجها مباشرة من رجل قُدِّم إليها باعتباره شيخًا فقيهًا، وعالمًا من العلماء الكبار، واكتشفت بعد أيام فقط من معاشرته، أنه دجال يتزوج النساء ويطلقهن، ويسافر من بلد إلى بلد حاملًا بخوره وشعوذته.

تحدثت كثيرًا مع نجفة، وعرفت أن أكثر من سبعة أطباء تعاقبوا على العيادة على مدى سنوات، قد تحدثوا معها نفس



الحديث، وأخرجت من حقيبتها القماشية الواسعة ملفًا ضخمًا، مرتَّبًا بعناية، عثرتُ بداخله على فحوصات وأشعّات وتحاليل مخبرية، بعضها أجري بالمدينة، وبعضها بالعاصمة، ولا كان يوجد مرض يستوجب العلاج. وكان أطرف ما عثرت عليه داخل ذلك الملف، صورة للزوج المخادع، مسبب الصداع المزمن، يجلس وسط بخور مشتعل ونساء حاسرات الرؤوس، وقد طُمست عيناه بلون أسود، بينما كشفت ابتسامته التي لم تطمس، عن أسنان صفراء متآكلة عند الحواف.

حين خرجت نجفة، راضية بعض الشيء، وتحس ببوادر زوال الصداع، كانت الساعة تقترب من التاسعة، وكان لا بد من الذهاب للمستشفى للمرور السريع الذي أقوم به يوميًا كل مساء، خاصة أنني أعمل في قسم النساء والتوليد، ذلك القسم الحافل بالمفاجآت، ولا يمكن لأحد أن يتوقع ماذا سيحدث بداخله في كل لحظة، ولم تكن ثمة هواتف متوافرة في ذلك الوقت، لاستخدامها في الاستفسار من بعيد، وعلى الطبيب المساعد الذي يغطي الحالات الطارئة، أن يسعى باستمرار ليظل قريبًا من المأساة، حتى إذا ما وقعت، تلقاها بسرعة. من هذا المنطلق، كان وجودي داخل المستشفى في سنوات عملي الأولى، أكثر كثافة من وجودي داخل البيت، وحتى تلك الأيام الخالية من المناوبات، لم تكن تأتي بنوم هادئ ومريح، كانت تضطرب كثيرًا، بالعديد من الأهل والأقارب والجيران الذين لا يذهبون مباشرة إلى المستشفى، حين تداهمهم أمراض في الليل، ولكن يأتون أولًا عندي، ثم أقودهم بعد



ذلك إلى المستشفى، وحدث أن عالجت حالات كثيرة وأجريت عمليات متعددة، والطبيب المناوب نائم في غرفته لم يوقظه أحد.

دخلت إلى قسم النساء والتوليد، أمشي على مهل، وأشاهد أمامي على النجيل الجاف المزروع في حوش القسم، عشرات الرجال والنساء، وقد جلسوا يحتسون القهوة والشاي، يتبادلون الحديث والضحك، وينتظرون قريبات بلا شك، يوجدن في ضيافة عنابرنا أو غرفة الولادة الضيقة التي تحتوى إضافة إلى طاولة الولادة، على سريرين من الحديد المطلي بالأبيض، ننقل إليهما النساء اللائي على وشك الوضوع. كان ثمة وجه مألوف وسط تلك الوجوه المنتشرة على النجيل، نهض صاحبه حالما لمحني أدخل، أسرع الخطى باتجاهي، وكانت برفقته فتاة منسَّقة، ترتدي ثوبًا أصفر، وصندلًا أحمر عالي الكعب، ويبدو من تحت غطاء رأسها الشفاف، شعر كثيف ومتماوج. إنه (إدريس علي)، صاحب تلك الزيارة المتأنية التي حدثت في عيادتي أول المساء، وقلم زينب الرخيص الذي كان علي أن أقبل به هدية بلا خيار. كان يرتدي زي جنود الصاعقة المرقَّع نفسه، وحذاؤه اللامع قد تلوث ببعض الغبار.

ردد إدريس، وهو يصافحني بيده النحيلة، ويقدم المرأة إليّ:

- آسف لإزعاجك..

ثم أضاف:

- هذه صديقتنا هويدا من حي الشاطئ، عندها مشاكل نسائية وسأتركها تحكي لك.. شكرًا جزيلًا يا صديقي.



ثم انفلت خارجًا من القسم، نفس انفلاته من عيادتي أول المساء، تاركًا هويدا تتلفت في قلق، ولا بد تشعر بالحرج من مواجهتي بلا معرفة وثيقة وقد تركها مرافقها ومضى. تأملتها قليلًا وأنا أحاول ربطها بصداقة واحد مثل (إدريس علي)، يبدو بعيدًا تمامًا عن وجهها المضيء الجميل، وحيائها المرتبك، ولا أعثر على ذلك الرابط، طلبتُ منها انتظاري في غرفة الكشف، وهي مكتب صغير يطل على فناء القسم، ولا يوجد به سوى طاولة للكشف، وطاولة لجلوس الطبيب ومقعدين من حديد منسوج بحبال البلاستيك، وعدة أوراق صغيرة تتطاير بفعل مروحة الكهرباء المعلقة في السقف، كنا نستخدمها لكتابة الوصفات، ثم دخلت إلى غرفة الولادة، منساقًا خلف أنين خافت يصدر من داخلها.

كانت المتوجعة الراقدة على طاولة الولادة في تلك اللحظة، فتاة في نحو التاسعة عشرة أو العشرين، مذعورة، وبائسة، وتضم ساقيها إلى بعضهما بقوة، وعدد من القابلات المتمرسات، يحاولن طمأنتها، وفتح ساقيها حتى يخرج جنين عالق، لم تكن تساعد في دفعه إلى الخارج. لم تكن على يديها حناء توحي بزواجها واستعدادها للولادة، ولا ثمة عطر يفوح من جسدها المتعرّق، كما هو معروف عند النساء حيث يدخلن غرفة الولادة، دخولهن حفلة عرس، ولا كان برفقتها سوى امرأة نحيلة، تستر وجهها بطرف ثوبها الأخضر الممزق عند الأطراف، عرفت فيما بعد أنها زوجة أخيها المسافر في مهمة عسكرية، في مدينة أخرى على الحدود الشرقية.



- حمل غير شرعي.

همست إحدى القابلات في أذني، حين اقتربتُ من الفتاة، ولم يكن شيئًا خارقًا أو غير مألوف، فقد اعتدنا على استقبال تلك الحالات باستمرار، فتيات مراهقات، ونساء متزوجات من رجال سافروا للعمل في الخارج، وأحيانًا فتيات ليل متمرسات، وغير مباليات، يأتين ليدلقن ثمار الخطيئة على طاولتنا ويذهبن. فتاة بريئة وفي وجهها ذعر وربما تكون هذه غلطتها الأولى، وامرأة الأخ متعاطفة كما يبدو، وتستر وجهها، وليلة شاقة بلا شك، خاصة إن تعثرت الولادة وقادتنا إلى غرفة العمليات لإجراء جراحة قيصرية. لم يكن مصير الطفل يشكل عقبة كبيرة بأي حال من الأحوال، ولدينا عدد كبير من النساء، أغلبهن من الممرضات العاملات في القسم والأقسام الأخرى، كن مستعدات لأخذ الأطفال وتربيتهن وجعلهم يواجهون المجتمع بصلابة، وأعرف واحدة من أولئك النساء، يوجد في بيتها جيش من مجهولي النسب، جمَّعتهم على مدى سنوات، ويعيشون حياة عادية، يذهبون إلى المدارس، ويلعبون الكرة في الشوارع، وبعضهم يعمل في وظائف ذات بريق.

اقتربت من الفتاة أكثر بعد أن ارتديت قفازي لفحصها، كان رأس الطفل قريبًا جدًا، لكنَّ عصبية الأم أوقفت تدفقه إلى الخارج، ومن ثم استخدمت ما يسمى بالجفط لسحبه، وهو عبارة عن كماشة من الحديد المعقَّم، تشبك بالرأس، ويتم سحبها برفق وخبرة. كان ولدًا عاديًا، صرخ بطريقة عادية، تنفس بطريقة عادية، لكن ليس ثمة زغرودة أطلقت، أو فرحة طاغية، أو حلوى توزع على

عجل للطبيب وطاقم التمريض، ويحمل بعضها للغرباء الممدّدين على النجيل الجاف، وزوجة الأخ كشفت وجهها الآن وواجهتني، سألتني بصوت مرتبك:

- متى ستخرجونها من المستشفى؟، سيعود أخوها من السفر بعد يومين، ولا نريد فضيحة.
- غدًا صباحًا.. أو مساء حسب الحالة.

قلت لها، ولمحتُ إحدى القابلات، وكانت امرأة مسنة اسمها (ملكة) عملت في قسم النساء والتوليد منذ إنشائه، وأجرت مئات الولادات بمهارة، كانت تلم الطفل، تنظفه وتغطيه بملاءة من القطن، وتمضي به خارجًا، من دون أن تترك لأمه فرصة رؤيته ولو لمرة واحدة. كنتُ أعرف ما سيحدث للطفل ولم أفكر كثيرًا، سيسمى باسمى أو اسم أي سياسي أو مغن أو لاعب كرة، أو حتى صعلوك تعرفه القابلة القديمة، وسيمنح أبًا آخر، وحياة أخرى، وربما صادف أمه وأباه في يوم من الأيام أو لم يصادفهما أبدًا.

كانت توجد علي أحد سريري غرفة الانتظار فتاة متعجرفة قدمت من إحدى دول الخليج العربي، حيث يعمل زوجها، لتضع حملها الثاني، بانتظارها خارجًا على النجيل الجاف، جيش من الرجال، وعدد من النساء المتزينات، اللائي يحملن إرهاصات الزغاريد في حلوقهن وتأتي في كل مرة واحدة منهن لتسأل عن موعد الولادة الذي تأخر كثيرًا. وجدتُها تتوجع بغطرسة، وتشكو من حرارة الغرفة وضيقها، وعدم كفاءة مكيف الهواء العجوز، وذلك



السرب من الذباب الذي يزعجها، ويعطل تخيُّلها لوليدها القادم، وكان صبيًا مثبتًا بأشعة السونار التي أجرتها في تلك الدولة الخليجية، وجاءت تحمل صورها معها، وعرضتها علينا كفاكهة نادرة، وكانت كذلك، لأن تلك الأشعة لم تكن قد دخلت المدينة آنذاك، ولا كانت من وسائل التشخيص المتاحة. هذه أيضًا نماذج نصادفها بكثرة أثناء العمل، الفتيات اللائي يعشن في بلاد مرفهة، ويضطررن إلى العودة ليضعن وسط أهلهن، ولا توجد إمكانيات لإرضاء العجرفة، ومن ثم فحصتها بلا تعليق أو اعتذار، ومضيت إلى السرير الآخر الذي كانت المرأة التي ترقد عليه نائمة بعمق، وتصدر غطيطًا خافتًا، وأيقنتُ بأن ولادتها ما زالت بعيدة، وتجاوزتها إلى الخارج.

أعود إلى هويدا المضيئة، فتاة حي الشاطئ التي غرستها في انتظار قلق بلا شك، وقد مضت ساعة كاملة، وُلد فيها طفل بلا أب، تكونت أمومة بلا دفء، وحسرات كبيرة في بيت العسكري الغافل، المسافر في مهمة خارج المدينة. وجدتُ هويدا تنتظر، وقد سقط غطاء رأسها الشفاف، كاشفًا شعرها المموَّج بوضوح، وكان مشبَّكًا إلى بعضه بأشرطة بنفسجية. لم تكن تشكو من أمراض نسائية كما ردد إدريس وهو يقدمها إلي، ولا كانت متزوجة أصلًا لتصاب بتلك الأمراض، لكنَّه اضطراب النوم..كانت موظفة في أحد البنوك، تكتب الشعر والخواطر العاطفية، وتعول أسرتها الفقيرة المكونة من ستة أفراد بعد وفاة والدها في حادث مروري، وتحب زميلًا لها، ويحب هو فتاة أخرى، والمسألة معلَّقة منذ



عامين، وليس ثمة حل في الأفق.

- و(إدريس علي) من أين تعرفينه؟

أسألها، وما زلت أحاول العثور على رابط بينها وبين ذلك النحيل الذي كانت تجلس بجانبه على النجيل، وقدمها إليّ.

- من (إدريس علي)؟

تطلعت إليّ في استغراب، وقد بدا وجهها فاتنًا جدًا، وهو يحمل تلك النظرة المستغربة، وذلك الفم الصغير المدهون بأحمر شفاه خفيف.

كنتُ أكثر منها استغرابًا:

- الشاب الذي قدمك إليَّ وذهب.

- لا أعرف حتى اسمه، لقد وجدني أقف على باب العيادة الخارجية انتظارًا لدوري في الدخول على الطبيب، وسألني إن كنت مريضة، وعرض عليَّ أن يقدمني إليك باعتبارك صديقه، حين تحضر من عيادتك. نوعًا من التوصية، هذا كل شيء.

تلك اللحظة، أيقنت أنني علقتُ في شرك اسمه إدريس. لم يكن الشرك الأول حقيقة، ولن يكون الأخير، وأذكر عشرات الأشخاص الذين صادفتهم أيام بداياتي الأولى في كتابة الشعر، غرسوني في مقالب بلا حصر، وكانوا وقودًا جيدًا للكتابة فيما بعد.

الآن أنا متعاطف بشدة مع هويدا الشاطئ كما سميتها، أفكر في بذاءة الحب حين يطرد النوم، وأحاول أن أرسم وجهًا لائقًا لحبيب تسقط في عشقه مثل تلك الفتاة الرائعة، لم أكن بالطبع



املك حلًا لقصتها المربكة، ولكن على الأقل أملك دواء قد يأتي بالنوم المطرود إلى تلك الليالي الساهرة.

أخبرتها صراحة أنني مجرد طبيب عادي، ولست مؤهلًا لإدخالها عنوة إلى قلب لا يحس بعذابها ووصفت لها دواء مهدئًا، وصرفتها بعد أن كذبت عليها حين سألتني عن مكان عيادتي المسائية، حتى تزورني فيها، بأنني لا أملك عيادة مسائية، وإنما أتنقل بين عيادات زملائي، وخرجتُ من غرفة الكشف، وأنا أرى ابتسامات هامسة تتنقل بين ممرضات القسم من ممرضة إلى أخرى، وهن يشاهدن جلسة طالت بين طبيب ومريضة لا تبدو عليها آثار أمراض القسم التي يعرفنها جيدًا.

في الطريق إلى البيت لم يفارقني وجه الفتاة المضيء، ولم تفارقني قرصنة إدريس، وداهمتني كثير من الوساوس، أن ذلك الشاب النحيل المنكوش الشعر، الذي عرف حتى وقت قدومي إلى المستشفى بعد إغلاق العيادة، وسبقني إلى هناك، لا بد يبحث عن شيء عندي، ولعله مخبر من أحد أجهزة الأمن، يطارد فريسة، أو مجنون يبحث عن ضحية، وكانت الفكرة التي تكونت لديَّ عند وصولي إلى البيت، هي أن أعيد قلم زينب إليه في أول يوم أصادفه فيه، أطرده من عيادتي، وإن دعا الأمر أخليها تمامًا، وأبحث عن مكان آخر لا يوجد فيه (إدريس علي)، لأفتح عيادة فيه.



3

اليوم التالي في العيادة، كان غريبًا ومربكًا بحق، عثرت بالكاد على ركن قريب أضع فيه عربتي، وكانت ثمة ثلاثة باصات من ماركة روزا اليابانية أمام باب العيادة مباشرة، ويتدفق منها العشرات بين رجال ونساء وأطفال، داخلين إلى العيادة، او متجمهرين على بابها. توجستُ بشدة، وأكاد أوقن تمامًا أنهم معزون جاءوا بهذه الكثافة، ولا بد أن أحد أفراد أسرة عز الدين قد توفي فجأة، خاصة انني لم أشاهده صباحًا في المستشفى، يقف أمام كشك التيجاني المغروس في وسط الحوش، يتناول فطوره المعتاد المكون من شطيرتين من الفول.

تخبّطتُ وسط الجموع حتى دخلت، وعثرت على ممرضي العجوز بعيدًا تمامًا عن أي مأساة رسمتُها في خيالي، كان مبتسمًا بشدة، وقد امتلأت صفحة كاملة من دفتره القديم ذي الغلاف الأزرق، بأسماء المراجعين، وما زال يعمل على التسجيل بنشاط غريب. كان ما لفت نظري في أولئك المرضى الفجائيين، أنهم جميعًا بملامح واحدة، كأنهم أهل أو أقارب، يرطنون بصخب، يرتدي رجالهم الصديري والسروال القصير، وترتدي نساؤهم ثيابًا



ملونة رخيصة، وأساور من القصدير تحيط بالسواعد والأعناق، بينما أطفالهم شبه عرايا في ملابس شفافة. كانت رائحة عطر الشاكوين الذي يصنع في البيوت محليًا من الأعشاب، تضج في المكان.

سألتُ عن ذلك الزحام غير المتوقع، فأجابني الممرض وهو ينهض، ويتقدمني إلى غرفتي، بأنه رزق هبط علينا من السماء فجأة، ولا يعرف السبب. كان مخطئًا في اعتقاده، لأنني جلست على طاولتي أكثر من عشر دقائق أنتظر أن يبدأ دخول المرضى، طال انتظاري إلى عشرين دقيقة، ولم يدخل أحد. سمعت بعد ذلك صخبًا هائلًا بالخارج، سبابًا وصراخًا، وألفاظًا غريبة، وانفتح الباب فجأة، لأرى عز الدين موسى يدخل متورم الوجه، يدفعه نفر من أولئك المرضى الفجائيين، وقد أمسك أحدهم بيديه، لواهما خلف ظهره. وقفت مندهشًا أستطلع الأمر، ليتقدم مني أحد أولئك المرضى، كان شيخًا في نحو السبعين، يرتدي عمامة من قماش الكرب الشفاف، وصندلًا من جلد الماعز، تطاير منه الوبر، كان كما يبدو متحدثًا رسميًا لتلك الفوضى الغريبة ولا بد أنه تدرَّب على مخاطبة الأطباء من قبل، لأنه خاطبني قائلًا بلا مقدمات:

- هل تبيعون الإنسانية يا طبيب؟
- لا أفهم ما تعني.

قلت ولم أكن أفهم بالفعل، ولا كان ممرضي عز الدين في لحظة غضبه وتورم وجهه تلك، قادرًا على إفهامي أي شيء. كان



قد تحرر من قبضة الرجل الذي لوى ساعديه، وقف منتصبًا في مواجهتي، لكنّ صدره كان يعلو ويهبط بسرعة، ويصب من جسده العرق. وقد كان ذلك الممرض القديم الذي ينتمي لقبيلة المحس في أقصى شمال البلاد، واستوطنت أسرته الساحل منذ زمن بعيد، قليل الغضب فيما مضى، وصبورًا عرفت صبره شخصيًا أثناء مساعدتي في الجراحة، ولم أره بهذه الصورة أبدًا من قبل.

- طالبنا ممرضك بأجرة حتى ندخل عليك. هل هذه إنسانية؟.. هل تتاجرون في آلام الناس يا طبيب؟

كانت فصاحة لم أتوقعها من شيخ في ذلك العمر، وتلك المتاجرة بآلام الآخرين بالذات، جملة شديدة الإيحاء، لم أسمعها حتى من ألسنة مرضى أصغر سنًا، وأقوى لسانًا..

نظرتُ إلى الرجل بتمعن، شممت في هيئته دماء المحتال (إدريس علي)، ووجدت في صوته رنة كأني سمعتها من قبل، رنة الصوت الذي أهداني قلم زينب الرخيص، وقدَّم لي داخل المستشفى، فتاة تحب زميلًا ولا تنام، ولم أستطع مساعدتها.لم تكن ثمة جدوى لأوضح له، أن العيادات المسائية ليست سبيلًا مفتوحًا، يرتوي منه العطشان متى ما أراد ويمضي بلا ثمن، لأوضح أن مولد الهندي برد شاندرا، تم شراؤه بلا إنسانية، ويعمل في إنارة المكان بلا إنسانية، إيجار المبنى نفسه، يؤخذ مني آخر الشهر بلا إنسانية، والطريق الذي تشقه العربة حتى تصل، يذبحها يوميًا بلا إنسانية، ثم ذلك الوقت الذي يقتطع من راحة الطبيب، يقتطع حتمًا بلا إنسانية، لم يكن ليفهمني، وقد جاء ممتلئًا بضغينة كبيرة،



ومن خلفه شعب ربما يحمل المدي والخناجر، وينتظر نتيجة تلك المواجهة بيني وبينه. كان بإمكاني أن استدعي الشرطة، إن عثرت عليها في ذلك المكان، لكنني لم أفعل، وبدأت أحاور الرجل:

- هل أنتم من جماعة (إدريس علي)؟ - نعم.. لقد أهداك قلمًا غاليًا، وترفض علاج أهله.
- وهل تقيمون هنا في حي النور؟
- لا.. قدمنا من المرغنية.

كان حي المرغنية الذي ذكره، يقع في الطرف الجنوبي من المدينة، حي بعيد وشبه عشوائي، وممتلئ بالضجيج والفوضى، ولا بد أن إدريس المسكين قد تعب في الدوران بين أزقته وحفره العميقة، حتى يلمّ ذلك الشعب، ينازلني به، ولم أفعل له شيئًا سوى أنني استقبلته في عيادتي، قبلت بقلم زينب هدية، من دون أن أعرف من هي زينب، وأسمع سيرة القلم ترد الآن على لسان ذلك الشيخ الفصيح بوصفه هدية غالية.

كان القلم موضوعًا أمامي على الطاولة، لم أمسّه قط منذ تسلمته، ولا كان مغريًا بتجربته في الكتابة حتى، التقطته في تلك اللحظة بعنف، لوّحت به أمام وجه الرجل، ثم كسرته من الوسط وألقيته أرضًا، وفوجئت بالرجل يلتقطه مرة أخرى، يخرج من جيبه شريطًا لاصقًا شفافًا، يلصق به القلم، ويعيده إلى الطاولة مرة أخرى، كأنه كان يعرف ما سيحدث واستعد له، وشعرتُ بالدهشة. قلت لعز الدين في صوت قاطع، إننا لن نتاجر في آلام أحد



اليوم، وعليه أن يدخلهم واحدًا واحدًا، ونراهم بلا أجرة، إنه يوم الإنسانية الكبير.

كان الممرض قد صعق، أراد الاحتجاج، لكنني أسكتُّه بنهرة قاسية، وسمعت الرجل الفصيح يرطن بعد أن فتح الباب كاملًا، وواجه الآخرين الذين يتكدسون في الصالة، والشارع أمام باب العيادة.

- واحدًا واحدًا من فضلكم وسنراكم كلكم.

قلت مرة أخرى، وعدت أجلس على طاولتي هادئًا، أضع سماعتي الطبية حول رقبتي، ولا ألتفت إلى انحناء عز الدين، ومشيته المترنحة وهو يغادر غرفتي، ولا إلى صوته المتحشرج الذي بدأ ينادي به على المرضى حتى يدخلوا.

لا بد أنها الثانية عشرة ليلًا حين فرغنا من معاينة تلك المظاهرة المرضية الحاشدة التي أرسلها (إدريس علي)، سبعة وخمسون مريضًا يشكِّلون كتابًا من كتب الطب، في فهرسته وتنوع أمراضه، عثرتُ بينهم على السل الرئوي، واحتقان المرارة، والعمى الليلي، وتخبط صمامات القلب، وتورم الساقين، ومضاعفات مرض الضغط والسكر، والربو الشعبي، وتليف الرئة، وأمراض أخرى أقل شأنًا مثل الملاريا، والتيفود وحمى القصب، ولين العظام عند الأطفال، وكانت ثمة فتاة في الثالثة عشرة من عمرها، اسمها نورية، تملك قلبًا في الجانب الأيمن من الصدر، ولم تشخص أبدًا من قبل، وجاءت تشكو من قمل الرأس الذي يسري في الليل، ويمنعها النوم، لكن هيئتها الهزيلة أغرتني بفحصها كاملًا، ومن ثم



عثرت على ذلك العيب الخلقي النادر.

كنتُ مغتبطًا من ذلك التنوع الذي لا يتوافر بسهولة، بالرغم من تعبي الشديد، ومحاولاتي المجهدة فك رموز الرطانة القبلية التي كانت تصدر من بعضهم، ممن لا يجيدون العربية أو يتصنعون عدم إجادتها حتى يظلوا مربوطين بهوياتهم، خاصة النساء المسنات، وقد استفدت كثيرًا من فصاحة الشيخ الذي واجهني في البداية، عيَّنته مترجمًا فوريًا في تلك الساعات، ولم يكن مريضًا بأي شيء، لكنَّه لم ينس حين انتهينا من ذلك الجيش، أن يسألني عن أدوية علاج الهمة، وإعادة الشباب إلى شيخ مهدم. كان اسمه حامد رطل، اسم شائع عند قبيلته، ولا يوجد تقريبًا عند قبيلة أخرى، وقد عمل طوال حياته، حمَّالًا بالميناء، حتى تعب ظهره من حمل الأجولة والحقائب، وازداد فقرًا من تفاهة العائد الذي كان يجنيه، والآن يعتمد على أبنائه الذين يعملون في نفس وظيفته السابقة، يجلس نهارًاعلى مقهى شعبي في حي المرغنية، يراقب الطريق الضاج، يرد التحايا، ويمازح النساء العابرات، ويذهب في المساء إلى معالج روحاني اسمه الشيخ الحلمان، يسكن في ذلك الحي الفوضوي أيضًا، يساعده في إيقاد بخوره، وترتيب دخول مرضاه النفسيين، ويطمح في الأيام القادمة أن يفتتح عيادته الروحانية الخاصة بعد أن تعلم كثيرًا من الحيل عند شيخه.

لم تأت سيرة (إدريس علي) مرة أخرى أثناء حواري مع الرجل، ولا سألتُ عن كيفية لمَّهم هكذا، وإرسالهم إلي، وهل



حملتهم تلك الباصات من منطقتهم البعيدة، بإنسانية أم لا؟.. كنتُ في الحقيقة فد أعجبت به، وفكرتُ أنه ربما ينفع شخصية في رواية قد أكتبها ذات يوم.

بالطبع كانت الحصيلة المادية في ذلك اليوم، صفرًا، وحتى أولئك المرضى المعتادين ممن يترددون علينا بشكل مستمر للكشف أو المقابلة الروتينية، لم يجدوا طريقة للدخول إلى العيادة بسبب الزحام، ومضوا إلى طبيب آخر، يملك عيادة قديمة في أول الحي.

كانت الباصات قد مضت تحمل شعب إدريس الفوضوي إلى مقره البعيد، ووقف عز الدين أمامي ساخطًا، ويطالبني في جرأة لم أتعوَّدها منه، أن أدفع ثمن تلك الحقن التي كتبتها للمرضى، واستهلكوها عن آخرها، وكانت ملكه، اشتراها بماله الخاص، ويستخدمها في جني بعض الربح الإضافي، أيضًا خسر الكثير من الوقت، والمخدر الموضعي، والشاش المعقم، حين أجبرته على ختان صبي صغير، قدم برفقة أولئك المرضى الفجائيين.

حين وصلت إلى البيت، وجدت أسرتي كلها تقف في الشارع، مدهونة بالقلق، لقد تأخرت عن موعد وصولي.. تأخرت كثيرًا في ذلك اليوم.ولم تكن ثمة طريقة للبحث عني، وأنا أقود العربة الوحيدة التي تملكها العائلة. لم تكن ثمة هواتف تعمل في المدينة ذلك الحين.



4

التاسعة والنصف مساء في عيادتي وقد فرغت من معايناتي وأستعد للرحيل.

كان قد زارني مرضى معتادون في ذلك اليوم، قضيت معهم مساء عاديًا، أفحصهم وأصف لهم الدواء، وأنصح الذين يشتكون من مرض السكر، وارتفاع ضغط الدم، وانتفاخ المصران الغليظ، بتغيير عاداتهم الغذائية، وممارسة الرياضة بانتظام، في مجتمع أعرف تمامًا أنه لن يستجيب. وجاءتني امرأة مطلَّقة في نحو الثلاثين، كان اسمها الرسمي سهلة، وتسمي نفسها سماسم في وسط معارفها، ترتدي ثوبًا ملوَّنًا شفافًا فوق قميصها الأخضر اللون، وذهبًا حقيقيًا منقوشًا بفن، ومتكدسًا حول معصميها الممتلئين، وتضع واحدًا من العطور الزيتية التي لا أعرف لماذا يستخدمها الناس، ولا كانت رائحتها في نظري، سوى نشاز يضايق الشم

لم تكن المرة الأولى التي تزورني فيها سماسم، في الواقع كانت المرة العشرين أو الثلاثين منذ افتتحت عيادتي، لكنَّها المرة الأولى التي تأتي فيها بهدية، وكانت علبة من حلوى الماكنتوش



الإنجليزية الصنع، لا أدري كيف حصلت عليها، وكانت في ذلك الوقت ترفًا لا تجده إلا عند الأثرياء.

لقد كانت سماسم مصيبة أخرى من المصائب التي جرَّتها العيادة، فقد خطبتني لنفسها منذ شاهدتني أول مرة، وتسعى للزواج مني بصبر، وأشاعت في الحي أمر تلك الخطبة، لدرجة أن أحد إخوتها، وكان نشالًا محترفًا، مسجلًا لدى دوائر الشرطة، يدخل السجن ويخرج بلا توقف، قد زارني في أحد الأيام بلا مرض، أرعبني بصوته الكبير، وذلك الوشم على شكل ذبابة، المنحوت في ذراعه العارية، وطالبني أن أطرق الباب رسميًا بدلًا من اللعب بعواطف بنات الناس، وأضاف وهو يخبط على طاولتي، بأنه يعرف الأطباء ومن هم على شاكلتهم من حاملي الألقاب جيدًا، ويعرف حيلهم في استدراج النساء الساذجات إلى شباكهم، وتركهن بعد ذلك بلا وازع من ضمير. حاولتُ إخباره أنني لا أعرف شيئًا عن أخته أكثر من كونها مريضة تتعالج عندي، ولا لعبتُ بعواطف أحد منذ عرفت معنى العواطف، ولا أفكر في الزواج على الإطلاق وأنا ما أزال في بداية حياتي العملية، لكنَّه لم يفهم، أو أراد ألا يفهم، خبط على الطاولة مرة أخرى قبل أن ينصرف، وهو يصيح بصوت سمعه المرضى الجالسون في الصالة: نحن ننتظر قدومك برفقة أهلك.. لا تتأخر. ثم أعقب كلامه بإشارة تهديدية من إصبعه رفعها في وجهي.

بعد ذلك طالبتُ تلك السماسم المهووسة في أول فرصة رأيتها فيها، أن تكف عن المجيء إلى عيادتي بلا مرض، وأن تبتعد عن



طريقي، ولا تدعني أتصرف بحمق، لكنَّها ابتعدت نحو شهر لم تأت فيه، وتعود في ذلك اليوم بالذات، معطَّرة بالزيوت الخانقة وتحمل علبة من حلوى الماكنتوش الغالية.

أصبت بالذعر حين رأيتها تفتح باب الغرفة وتدخل بتلك المشية المعوجة، والابتسامة التي تسع الوجه كله، طلبت منها المغادرة فورًا، لكنَّها محت ابتسامتها بسرعة، وضعت إحدى يديها على خاصرتها اليمنى وأخذت تصيح كممغوص حقيقي:آخ وجع الكلى.. آخ.. آخ.

لم يكن ثمة بد من معاينتها حتى لو كانت كاذبة، وفي دفتر عز الدين يوجد اسمها، وأمامه مبلغ العشرة جنيهات الذي دفعته أجرة للكشف بلا تردد. إنها إحدى معضلات مهنة الطب، أن تقبل بمعاينة نصاب وتدري تمامًا أنه نصاب، أو ترفض معاينة نصاب، ويموت في ذلك اليوم بالذات من مرض حقيقي، وأعرف قصة محمود عموش الذي كان شابًا في أواخر العشرينات، يعمل محصلًا للنقود في أحد باصات النقل العام، ويتردد على المستشفى باستمرار، شاكيًا من مغص في بطنه، وتتم معاينته بدقة وعمل الأشعات والتحاليل المخبرية له ولا يعثر الأطباء على شيء، فيوقعون على أوراق خروجه، ولدرجة أنه كان في الأشهر الأخيرة، يذهب مباشرة إلى عنبر المرضى الداخليين، من دون أوراق للدخول، يرقد على أي سرير خال يجده ويتوجع، يطالعه الأطباء أثناء المرور، يحيّونه بمعرفة، يسألونه عن أخبار العمل، ومباريات كرة القدم، وآخر فيلم هندي عرضته السينما، ويتجاوزونه



إلى مرضى آخرين، إلى أن مات يومًا بانفجار في الزائدة الدودية، وقد مرّ أمامه سرب من الأطباء لم يلتفت إليه أحد منهم.

أرقدت سهلة- سماسم، على طاولة الكشف القديمة التي هزَّها إدريس وقال إنها بلا حيل، وتحتاج إلى استبدالها، وأردت أن أنادي ممرضي عز الدين، حتى يقف حائلًا بيني وبين أي سلوك طائش قد يصدر منها، لكنَّها احتجت بشدة، كانت تعرف حقوقها كما قالت، وأنها مريضة في مواجهة طبيب وليست موديلًا في فاترينة عرض يشاهد عُريها كل من هب ودب، ومن ثم أقلعت عن فكرة مناداة الممرض، وواجهت الكارثة وحدي.

لم يكن ثمة شيء إيجابي بالطبع، لا ثمة حقنة ستؤخذ أو دواء سيكتب بالرغم من تلوّيها وصراخها حين أضع يدي على كل بقعة من بطنها الذي كان منتفخًا، وبه خطوط رأسية بفعل السمنة، والمريضة ارتدت ثوبها الآن، وجلست في مواجهتي، تمضغ العلكة بفن، تنفخها وتطرقعها، وتفتح علبة الحلوى الإنجليزية، تأخذ منها واحدة بطعم الفستق، تضعها أمامي، وتتحدث عن العوالم الشاعرية، وأغاني الأعراس، وعدد الرجال الذين طرقوا بابها بعد أن تحررت من زوجها القديم، وكان فيهم مهندسون معماريون وضباط جيش ومحامون، وعدد بمهن براقة أخرى، لكنَّها لا تفكر في أحد.. تقول ذلك، لكن عينيها لا توافقانها، ويدها الثقيلة بفعل الذهب الحقيقي، تقترب من يدي محاولة لمسها، وأرفع يدي عن الطاولة في خوف.

- أرجوك يا سهلة.



أخاطبها باسمها الحقيقي، اسمها المسجل على شهادة ميلادها، وقسيمة زواجها وطلاقها، وعلى دفتر عز الدين، إمعانا في إبعادها، ولا تبتعد، أذكرها بصعلكة أخيها وتهديده، وتقول: لا تهتم.. أنا ولي أمر نفسي حسب الشرع، ألست مطلقة؟، وأنهض معلنًا أن وقت زيارتها قد انتهى وعليها أن تخرج، لأن عددًا من المرضى ما زالوا ينتظرون في الخارج، وتنهض بعد تردد، تاركة علبة الحلوى في مكانها وترفض بشدة أخذها..وأفكر أن تلك الحلوى ستسعد عيال عز الدين بلا شك، وأراهم دائمًا يتصارعون من أجل حلوى الكرميل الرخيصة.. كانت قد منحتني قبلة في الهواء، مضت إلى الباب تمشي بتكسر مجنون، وكان صندلها أسود اللون وذا كعب عال، يساهم في تكسر مشيتها أكثر.

التاسعة والنصف مساء، أخرج إلى الطريق لأمضي إلى مروري الروتيني في المستشفى، لكنَّ العربة لم تكن موجودة. سُرِقت عربة والدي التي تستخدمها العائلة كلها، ولا نملك غيرها وأكاد أجن. كيف سُرِقت من أمام باب يدخل منه الناس ويخرجون بلا توقف؟، وكيف أن عز الدين لم يلحظ ذلك أو لم يسمع صوت محركها حين دار؟. هل يكون شقيق الطائشة سمساسم قد أرسلها شركًا يشغلني به مدة من الوقت وسرق العربة؟، لكنَّه حسب علمي نشال محترف للجيوب، يصطادها في الباصات وحافلات النقل العام، وفي طوابير السينما والاستاد الرياضي والسوق، ولا يعرف حتى كيف يقود عربة. كنا نتلفت في الظلام أنا وعز الدين، وعدد من العابرين سمعوا بالخبر وتجمهروا، كلٌّ يدلي بإفادة مختلفة، او



يسأل أسئلة بلا معنى، وفي تلك اللحظة تقدم منا شاب طويل، يحمل على كتفه حقيبة صغيرة، ويشبه طلاب المدارس الثانوية، أو الجامعات، سأل:

- هل تبحثون عن العربة الكورولا البيضاء التي تقف كل يوم هنا؟
- نعم.. هل رأيتها؟

قلنا أنا وعز الدين في صوت واحد.

- نعم..رأيتها منذ ساعتين في الشارع العام المؤدي للبحر، كانت مزيَّنة بالورد، وتحمل عريسًا وعروسًا في زفة.
- هل أنت متأكد أنها هي؟
- كل التأكيد.

قال، ومضى من دون أن يدلي بمعلومات أخرى.وأصاب بالحيرة من تلك المعلومة الخطيرة، أن تتقدم عربة العائلة زفة في حي غريب، ولا نعرف من تزوج ومن زُف في ذلك اليوم، وكيف تُسرق عربة لتنفضح في زفة؟، ومن سرقها ليستخدمها ذلك الاستخدام غير المألوف؟

كان يوجد في حي النور قريبًا من العيادة، على بعد عدة شوارع، مركز صغير للشرطة، به عسكريان في كل وردية، وقد أنشئ لفض المنازعات القبلية، أو المشاجرات البسيطة التي تحدث أحيانًا بين الجيران بسبب أمور تافهة، وأيضًا لتلقي الشكاوي في حالات السرقة والنهب المسلح المنتشرة في تلك الأحياء البعيدة. وصلنا للمركز أنا وعز الدين نتصبب عرقًا، وكان بداخله في تلك



الساعة من الليل، شرطيان، أحدهما شاب في مقتبل العمر، يشبه في ملامحه قبائل (البجا) المستوطنة في الشرق والتي لا يفضل رجالها عمل الشرطة إلا نادرًا، والآخر يبدو قديمًا وعلى وشك التقاعد، وتدل ملامحه وتلك الخطوط الرأسية الموشومة على خديه، نوعًا من الزينة التقليدية، على أنه من أهل الشمال الذين كانوا أول من طرق العسكرية وتوظف بها، في البلاد. حكيت عن موضوع العربة وسرقتها من أمام باب العيادة، واستخدامها في زفة عرس، كما ذكر أحد الشهود العابرين، فتولى العسكري القديم القضية، سجَّل البلاغ على دفتره الذي كان من ورق أصفر وبلا غلاف، وسألني إن كنت أتهم أحدًا بالذات، بتلك السرقة، وخطر ببالي أن أتهم المحتال (إدريس علي)، والنشال شقيق المجنونة سماسم، لكنني لم أجرؤ، ولا أملك دليلًا على أحد. قلت: لا أعرف.. فانشغل الشرطي بفتل شاربه قليلًا ثم نهض مرددًا..

- تفضلا معي لو سمحتما.

لم يسألني حتى إن كانت العربة مسجلة باسمي أو اسم شخص آخر، ولا عن لونها وماركتها وأرقام تسجيلها، ولا سأل عز الدين، إن كان قد سمع شيئًا أم لا؟، كما كان يفترض في تلك الحالات، كان ظهره منحنيًا إلى الأمام قليلًا وهو يمشي، جرابه المدلى من الخصر، مفتوحًا وبلا سلاح، وقد تأرجح أحد أشرطته العسكرية على كتفه اليمنى، بسبب تمزق الخيوط. وقد خطر لي أن أسأله عن سلاحه الذي ربما يحتاج إليه في مهمته، في نفس اللحظة التي رأيته فيها يلتقط عصًا ضخمة من أحد أركان الغرفة،



ويطلب من زميله البقاء بالقسم حتى يعود.كان يصيح:

- لا تخرج يا تولاب من مكانك حتى لو وقع انقلاب عسكري.. هل تفهم؟

لم يكن بالمركز سيارة مخصصة لتنقل العسكريين، ولا حتى دراجة نارية تستخدم في المهام العاجلة، وصرخ الشرطي في رجل على عربة كارو يقودها حمار، وتحمل عددًا من صفائح الماء، عبرت أمامنا بالتوقف، وركبنا كلّنا، وقد كان صاحب الكارو واسمه جبران، وزارني مرة في العيادة يشكو من ألم ركبتيه، بارعًا في تخطي الحفر، والشوارع الموحلة، والدخول إلى أزقة ملتوية، لا تسمح حتى بمرور قطة، وقادنا مباشرة بعد أن عرف بأمر العربة المسروقة، إلى بيت متهالك من الخشب، يطل على أرض خلاء، كانت مضاءة بالفوانيس، وممتلئة بالناس وبقايا الأكل، وثمة مغنٍ لم أره من قبل، يرتدي القميص الأبيض القصير والصديري، يعزف على آلة العود، ويردد أغنية محلية اسمها (الشحم واللحم) كنتُ قد سمعتها من قبل تُردد في العديد من الأعراس بالرغم من رداءة كلماتها ولحنها، وكانت المفاجأة، أن العربة بكامل زينتها المورَّدة، كانت هناك.

نزلتُ من عربة الكارو مسرعًا قبل الشرطي حتى، وأسرعت أتفقد عربتي من الخارج والداخل في قلق، وكانت كما هي، لم يفقد منها شيء، مسجلها العتيق ما زال يعمل، ولّاعتها تعمل أيضًا، كساء الجلد الذي كسوت به مقاعدها موجود في مكانه ولا شيء جديدًا سوى عدة كيلومترات أضيفت إلى عداد السرعة الذي أحتفظ



في ذهني بقراءته دائمًا. توقف الغناء والرقص بأمر من الشرطي العجوز، وجيء بالعريس ونفر من أهله من وسط الساحة، وخضعوا لاستجواب سريع، اتضح منه ما حدث.

كان العريس قد تعرَّف منذ فترة وجيزة في سوق الحي، على شخص اسمه إدريس، وصفه لنا، فكان هو صاحب قلم زينب نفسه، ومجمِّع فوضى المرغنية الذي يرتدي زي جنود الصاعقة المرقَّع وينكش شعره، عرف إدريس بأمر العرس المقرر إقامته في ذلك اليوم، بعد تلقيه دعوة لحضوره من العريس، وعرض أن يؤجر لهم عربة جيدة، بسعر رخيص حتى تقود الزفة، وتشرّف العروسين، بدلًا من حشرهما في باص ممتلئ بالمدعوين، بسبب عدم الإمكانيات. وافق العريس الذي كان يعمل حلاقًا بسيطًا في سوق حي النور الشعبي، على عرضه بلا تردد، سلَّمه مبلغ الإيجار كاملًا، ووصف له البيت، وجاءهم بالعربة في أول المساء، قائلًا إنه سيعود لاستردادها في التاسعة والنصف، لكنَّه لم يحضر.

- نحن مستأجرون ولسنا لصوصًا جنابك. ولم نكن نعرف أنها عربة الدكتور، العربات تتشابه جنابك.

كان أحد أقارب العريس يتحدث بهدوء واثق، وقد ترك عدد من المدعوين بمن فيهم نساء وأطفال، ساحة الغناء، وتجمعوا حول العربة، بعضهم يجلس عليها، وبعضهم ينقر على زجاجها، ومدّ أحد الصبية يده، تحسس بها الجراب الخالي المدلى على خصر الشرطي، قوَّس أصابعه على هيئة مسدس صوبه



للحاضرين وهو يصيح: هاند أب.

ابتسم الشرطي العجوز، وقد أعجبته كلمة جنابك التي رددها الرجل مرتين، بلا شك، وما كانت هيئته تغري بإطلاق تلك الكلمة الفخمة عليه، لكنَّها كما يبدو كانت المحرك الوحيد لرفع المعنويات في مهنة شاقة تؤدى بلا عدة ولا عتاد، وبراتب شهري، أقل كثيرًا من إيراد يومي لمتسول في الطرق.

- هل عنكم صمغ؟

سمعت الشرطي يسأل.

- صمغ؟

ردد العريس الذي كان يبدو قلقًا، ومتلهفًا لإنهاء تلك المعضلة، وتكملة مراسم زواجه بلا مشاكل إضافية، ولا بد أنه يفكر في تلك الزفة المسروقة التي ابتهج فيها ساعتين، وحتمًا ستكون حديث الناس في حي النور وأحياء أخرى مشابهة، وربما في المدينة كلها، أيامًا طويلة بعد ذلك.

- نعم صمغ.. احضروا صمغًا لو سمحتهم.

في اللحظات التالية كان عدد من المتطوعين قد اقتحموا بيت العرس والبيوت المجاورة له، والتي كانت مفتوحة لإيواء الضيوف القادمين من أحياء أخرى، أو خارج المدينة، كما هي العادة في تلك الأحياء الشعبية، وجاء أحدهم بعد دقائق من الانتظار، بعلبة صغيرة صفراء مفتوحة، داخلها صمغ متجلط، بلل الشرطي إصبعه بلعابه، وضعه على الصمغ المتجلط، ودهن موضع الشريط المنفلت على كتفه، وألصقه، ثم وضع العلبة في جيبه من



دون أن يطالبه أحد بردها. كدت أضحك برغم تلك الظروف كلها، لكنني كتمت ضحكتي، وألمح عز الدين يقف واجمًا كأنه اعتاد على تلك الحياة في حي يضج حياة.

- اسمع

كان الشرطي يخاطب العريس الذي كان ما يزال يتلفت باستمرار، ولا تستقر عيناه على جهة معينة، وعدد من الرجال المعممين، يلتفون حوله بملامح متحفزة:

- سيكون الدكتور كريمًا جدًا بعد أن استرد عربته، ولن يقاضيكم، لكنني لست كريمًا.. أكمل زواجك وشهر عسلك، وتعال لمقابلتي في مركز الشرطة بعد ذلك لنتحدث قليلًا عن استلام المال المسروق..انتهى.

بالطبع صادر رأيي في تلك المعضلة من دون أن يستشيرني، وما كنتُ أرغب حقيقة في مقاضاة أحد، أو إفساد فرحة لأحد، وقد استرددت عربة العائلة سليمة بلا نقص وأيضًا مغسولة ومزينة بالورد، لكن بالطبع لم تحل معضلة إدريس حتى الآن، وأسمع الشرطي يخاطبني:

- هيا إلى القسم لتحرر بلاغًا ضد المدعو إدريس، وسنقبض عليه في أقرب وقت.

كنا نركب العربة مبتعدين، وقد عاد المغني المغمور إلى عزف عوده، وترديد أغنية الشحم واللحم التي انقطعت عند مجيئنا، رأيت العريس يمسك بيد امرأة مزينة خرجت من أحد البيوت المفتوحة، لا بد أنها كانت عروسه، يدخل بها إلى وسط



الساحة الممتلئة، ويبدآن الرقص وسط المحتشدين، وجبران صاحب عربة الكارو التي أوصلتنا إلى مكان العرس والسرقة، ينحشر وسط الفوضى، بعد أن التقط صحنًا به بقايا أكل، غير عابئ بالصبية الذين انتهكوا صفائح الماء على ظهر عربته الكارو، أراقوها كلها على الأرض، وقفز بعضهم على ظهر الحمار في شقاوة خطرة، وحين وصلنا إلى قسم الشرطة بعد صراع مرير مع الأزقة والحفر، ومطاردة الكلاب التي تركض خلف العربة، كان عليّ أن أوقظ الشرطي العجوز الجالس بجانبي، فقد نام بعمق في رحلة لم تستغرق سوى دقائق معدودة.

- عربة مريحة.

كان يردد بصوت خامد وهو ينزل من العربة، بينما زميله الشاب، ذو الكتف الخالية من الأشرطة، يخرج من القسم مسرعًا، يقف متصلبًا أمام الباب، ويرفع يده بتحية عسكرية كادت تضحكني.



5

كان أحد أقاربي، واسمه فضل الله، يملك مطعمًا متخصصًا لبيع السمك في سوق حي النور الشعبي، سماه مطعم (الجنتلمان) وكان اسمًا غريبًا لمطعم، لا علاقة له بتلك الكلمة الإنجليزية التي يوصف بها الرجل ذو المروءة والشهامة، ولياقة السلوك.

لم أكن قد رأيت قريبي ذلك منذ سنوات طويلة، تقترب من العشر، ولا زرتُ مطعمه إلا مرة واحدة برفقة والدي حين كنت طفلًا، ولا جاء يبارك لي عيادتي التي كانت في حي يسكنه منذ سبعينيات القرن الماضي، ويمارس فيه صنعة بيع السمك الذي يشتريه مباشرة من الصيادين في البحر، كما جاء بعض أقاربي الآخرين الذين يتشتتون في الجوار، لكنني فوجئت به وقد مضت خمسة عشر يومًا على حادثة الزفة المسروقة، يدخل غرفتي فجأة، وبيده كيس من الورق البني، ينز منه الزيت، وتتبعث رائحة السمك المقلي كثيفة تخنق جو الغرفة، وضعه على الطاولة أمامي، ونز شيء من الزيت إلى دفتر الوصفات ولوّثه.

في تلك الخمسة عشر يومًا لم يظهر (إدريس علي) مرة أخرى في محيطي، لا شخصيًا ولا عبر احتيال جديد، وأخبرني



الشرطي العجوز، حين زرته في مركز الشرطة في إحدى الأمسيات، ورأيت شريطه العسكري ينفلت مجددًا بعد أن زال مفعول الصمغ، وفرغت العلبة الصفراء كما يبدو، أن أنسى الموضوع تمامًا، خاصة أنني لم أفقد شيئًا، وأن أحافظ على عربتي بتغيير الأقفال الهشّة التي عليها، ولم ينس أن ينصحني متحدثًا بصوت عال، ويفتل شاربه الأبيض الكثيف، باستخدام أقفال أمريكية أو ألمانية، لأنها تستعصى على الفتح حتى بمفاتيحها الأصلية أحيانًا.

سألتُه إن كان قد فشل في اعتقال المحتال إدريس، فهب واقفًا وهو يردد:

- لا يوجد مجرم اسمه إدريس ولا متاريس في هذه المنطقة التي أعمل فيها قبل أن تولد، أهل العرس هم الذين استلفوا عربتك، استخدموها مؤقتًا وأعادوها..وأنت تنازلت عن مقاضاتهم باختيارك، وأنا أنتظر العريس حتى يعود من شهر العسل، وأحاسبه بطريقتي..انتبه إلى حديثك.. ولا تقل فشلت للشاويش خضر أبدًا مرة ثانية.

كان قد عاد إلى الجلوس مرة أخرى، ووجهه الموشوم بتلك الخطوط الرأسية التي تحيله إلى أهل الشمال، قد احمرّ قليلًا، وألمح في عينيه نظرة غريبة، كأنها نظرة رجاء أن أذهب من أمامه بلا مشاكل. تلك اللحظة أصبت بدهشة حقيقية، ولم استطع أن أستوعب ذلك الكلام الغريب الذي سمعتُه، هل يكون ذلك



الشرطي العجوز شريكًا لإدريس الذي ينكر وجوده، ويدفعني إلى إنكار وجوده مثله، في سرقة العربة وتأجيرها لأهل العرس، ومصائب أخرى لا أدري عنها شيئًا؟، وقد رأيت إدريس مرتين في يوم واحد، وزارني جيش كونه وأرسله لغزو عيادتي، وأصدق تمامًا ما قاله العريس المفجوع بشأن تأجيره للعربة. لم تكن ثمة جدوى من مناقشتي للشاويش الغريب في قناعاته أو فساده.. لا أدري، وقد دخل القسم في تلك اللحظة، زميله الشاب، وهو يجر صبيًا متسخ الملابس، وذابل العينين، سرق حذاء ممزقًا من أمام مسجد في وقت الصلاة، وشاهده صاحب الحذاء، يتمشى به في السوق واقتنصه. علي أن أغيّر قفل العربة بقفل أقوى كما نصحني، وأبحث عن مركز شرطة آخر، أقدم شكواي فيه، إن عاد إدريس بإحدى ألاعيبه وأربكني مرة أخرى. لم أقل للشرطي شيئًا وخرجت من عنده، وتشغلني فكرة أن أنقّب حي النور وحدي باحثًا عن ذلك المقتحم.

ناديت على عز الدين، سلّمته كيس السمك (الجنتلمان) حتى لا يفسد هواء الغرفة برائحته ويزعج المرضى القادمين، وقلت لفضل الله الذي انتبهت إلى أن يده اليسرى خامدة قليلًا، ويجر قدمه اليسرى، كأنه أصيب بجلطة ما:

– لم أسمع أنك أصبت بجلطة في الرأس. متى حدث ذلك؟

قال وهو يجلس أمامي ويحاول تحريك يده اليسرى، وفرد أصابعها، وتستجيب ببطء، ولم تكن استجابة كاملة:



- لا جلطة ولا شيء يا ابن أخي، هذا ليس تخصصك.. إنه مسٌّ شيطاني خفيف، وأخبرني الشيخ الحلمان، إنني دست بقدمي على شيطان رضيع في أحد الأزقة أثناء عودتي إلى بيتي في الليل.. أنا الآن بخير بعد أن عالجني الشيخ، وسأشفى تمامًا في الأيام القادمة.

نظرت إليه مستغربًا، ليس من اعتقاده بمسألة الشيطان الرضيع الذي داسه بقدمه، فقد كان وجود الشياطين، ودخولها أجساد البشر، معتقدًا سائدًا في المجتمع الشعبي، ولكن من ذكره لاسم ذلك الرجل، فقد كان الشيخ الحلمان، هو المعالج النفسي أو المعالج الروحاني الذي يتدرب عنده العجوز حامد رطل، الرجل الفصيح الذي أنهكني بسبعة وخمسين مريضًا، قدموا من حي المرغنية البعيد، بناء على تحريض من(إدريس علي)، وعولجوا بإنسانية تامة.

- من أين عرفت الشيخ الحلمان؟
- دلني عليه صديقك (إدريس علي).. بالمناسبة أين إدريس هذه الأيام، لقد اختفى فجأة وكان يأتي باستمرار للعشاء عندي.. يحب السمك الجنتلمان.

إدريس مرة أخرى، وفي هذه المرة عند بائع سمك (جنتلمان)، يمت لي بصلة القرابة، يا لجنون الحكايات حين تتفرع وتتشابك، ويا لجنوني الشخصي الذي حتمًا سأجنه إن بقيت في هذا الحي، ترى ماذا دار بين النصاب وقريبي؟، أي صفقة عقدها معه؟، وأخاف في تلك اللحظة أن تكون ثمة مصيبة قد ارتكبت باسم



صداقتي.. إدريس ليس صديقي.. أنا لا أعرفه..أصيح داخل نفسي ولا أريد أن أسمع صوت فضل الله مرة أخرى، هذه زيارة لتثبيت كارثة بلا شك وليست زيارة ودية، وما كان فضل الله زائرًا وديًا قط، وحتى حين كان يأتي إلى منزلنا منذ سنوات بعيدة، كان يأتي في مأزق، وطالبًا العون من والدي.. لكن برغم ذلك لا بد أن أعرف.

- لا تقل لي أنه أخذ منك مالًا؟
- طبعًا أخذ..ألم ترسله لاستلاف ثلاثة آلاف جنيه لتجديد أثاث العيادة وصيانتها؟
- أنا أرسلته؟
- نعم حسب ما قال.
- وهل تعطي أي شخص يطلب مالًا باسمي، بهذه السهولة من دون أن تتأكد يا فضل الله، هل جننت؟

لا بد أنني كنتُ حادًا ومرتبكًا، وخاطبت قريبًا في الخامسة والستين باسمه خاليًا من لقب العم كما هو مفترض، وفضل الله ارتعد بسخاء، بدأ يسيل من جسده العرق الرطب، وقطعًا أحس في تلك اللحظة بغبائه وكان يبعد عني مسافة عدة شوارع، ولم يقطعها ليسألني قبل أن يجود بماله، إضافة إلى الصلة شبه المقطوعة بين أسرتنا وبينه، والتي لا تسمح قطعًا باستلاف مبلغ هائل كهذا ولا حتى مبلغ تافه منه..

- آخ.. حصيلة شهر من السمك الجنتلمان..أعطيتها لنصاب.. أليس صديقك فعلًا؟



- أبدًا.

كان يئن، وأحس بالشفقة تجاهه وتجاهي، والحنق على ذلك العسكري المتخاذل خضر الذي يدعي بأن لا وجود لإدريس أو متاريس في منطقة يعرفها جيدًا ويعمل فيها قبل أن أولد. سأعود إليه حتمًا، وبرفقة ضابط برتبة عالية هذه المرة، وأتمنى أن يكون شريطه العسكري ما يزال متأرجحًا على كتفه، حتى يراه الضابط الكبير ويوبخه..

طلبت من قريبي الموجوع أن يصبر قليلًا، ولا يقدم بلاغًا بحادثة النصب في قسم الشرطة، لأن لا إثبات لديه ولا شهود كما أخبرني، وحتى لو عثروا على إدريس، فلن يستطيع أحد إدانته في هذا الموضوع بالذات، سيُسأل عن سرقة عربتي، وسيقول إنه أخذها برضائي أو من واقع صداقتي، وكان ينوي إعادتها بعد انتهاء الزفة، وسيفلت أو يعاقب بعقوبة بسيطة، ما دامت العدالة نائمة في ذلك المركز البائس، وأعمال البحث والتحري، تجرى بعربة كارو عابرة مثل عربة السقا جبران.

نهض فضل الله يائسًا، ويجر ساقه المجلوطة أو التي داست على الشيطان الرضيع كما أخبره المعالج الدجال، على وجهه نصف اقتناع بحديثي، ولا أريد سؤاله عن النقود التي أنفقها عند الحلمان، حتى لا تشل ساقه الأخرى أيضًا..حتمًا كانت حصيلة شهر آخر من بيع سمكه الجنتلمان.

كان مزاجي قد تعكر بشدة، وأفكر في تلك الثلاثة آلاف جنيه، التي كانت ثروة في ذلك الوقت، وكم يومًا من العمل الشاق



داخل عيادة لا تأتي بالكثير، يمكنها أن تجمّعها.. أكثر من شهر أو شهرين بلا شك. لقد كان إدريس أكثر وعورة مما تصورته، أكثر دهاء مما يبدو على وجه شاب نحيل، بشعر منكوش، يرتدي زي جنود الصاعقة، ويتصيد الحسناوات القلقات في طوابير المستشفى، ويؤجر عربة مسروقة لعريس مسكين.. لقد درسني بلا شك حين افتتحت عيادتي، عرف أهلي ومعارفي، ووقت دخولي وخروجي، ولا بد يدخر لي عذابات أخرى لو لم أسرع باقتناصه، ليس عن طريق ذلك المركز البائس، ولكن بمجهودي الشخصي، وأعرف لحسن الحظ أشخاصًا عديدين يمكنهم أن يغربلوا الدنيا كلها بحثًا عنه.. سأرى ما تبقى من المرضى بلا مزاج، وأفكر في الصباح بذهن مفتوح عن خطة.. لا أريد أن أفقد عيادتي، لأن فقدها يبدو لي بلا معنى، في وقت أحتاجها فيه ويمكن لمطاردي أن يعثر عليَّ في أي مكان أذهب إليه..

- كم تبقى من المرضى؟

صحت في عز الدين من خلف الباب الموارب.

- مريضة واحدة.. إنها سهلة..سماسم.. هل أدخلها؟

نهضت في فزع حين تردد اسم سهلة - سماسم، خرجت من باب الغرفة مسرعًا، وانطلقت إلى عربتي، كنتُ أشم رائحة عطر زيتي، وأرى بطرف عين، سهلة التي تسمي نفسها سماسم، تعدل من وضع ثوبها على رأسها، وتمد يدها لتحيتي، وقد ظننت أنني أسرع لأتلقاها على باب الغرفة.



6

كان العقيد عمر، أحد الأصدقاء الجدد الذين تعرفت عليهم مؤخرًا، كان يعمل في الجيش، وعاد لتوه من رحلة عجفاء إلى جنوب البلاد، امتدت عامين، حارب فيها بضراوة، ما كان يوصف بالتمرد في ذلك الوقت، فقد الكثير من زملائه، وأصدقائه، وخاض في ألغام، وداس على شراك منصوبة بلا حصر، لكنَّه عاد في النهاية.عيّن في المدينة الساحلية التي لم تكن موطنه الأصلي، فقد كان من أبناء العاصمة، وصادفته في أول أيام عودته، حين كان يجلس في أحد الأندية المتراصة على الشاطئ، يحكي بترف عن فتاة نرويجية اسمها فلورانس، صادفها ضمن حملات الإغاثة الأوروبية في الجنوب، وكاد يتزوجها، واشترى لها بالفعل فستانًا ورديًا مزخرفًا، وأسورة من الذهب، وعطرًا غاليًا، من تاجر أوغندي اسمه ماموسو، كان يتنقل بين الحدود برغم المخاطر، لولا أن حصدها لغم غادر، وهي تعمل. رجل عسكري قوي، ثابت الأعصاب حتى وهو يحكي عن حب ضائع، عن مأساة، يبدو متناسقًا، وشامخًا، ودائمًا قبعته العسكرية في يده، أو داخل سيارته لم أرها على رأسه قط. وكان قد ساعدني من قبل في معضلة



جسيمة، حين خلَّص أحد أقاربي من دهاليز مظلمة، ألقي فيها بتهمة تهريب المواد التموينية، وبيعها في السوق السوداء، وما كان الرجل مهربًا ولا علاقة له بالسوق السوداء، ولكن صاحب تجارة عادية، لم يكن من بينها أي مواد تموينية. وتلك التهمة لفَّقها له منافسون في السوق.

ذهبت لزيارة العقيد عمر في مقر عمله، وكان قاعدة عسكرية شرسة تقع في طرف بعيد من المدينة، محاطة بالأسلاك الشائكة، وكشافات الإضاءة القوية، وممتلئة بصراخ الجنود وضجيجهم الصباحي أثناء التدريب، وصرامة القادة، وعربات المجروس الروسية الكبيرة التي ترعب بهيكلها الضخم، حتى وهي خارج الحرب. كان الدخول صعبًا، لكنني دخلت بعد أن أُمِرت بترك عربتي خارج السور، وكان الأمر مصادفة بحتة، حيث كان أحد أفراد دفعتي بالمدرسة الثانوية، ضابطًا هناك، وكان موجودًا بالباب ساعة دخولي.

لا أدري لماذا لجأت إلى عسكري متميز في موضوع ليس من اختصاصه، لكنَّه سعي وراء القوة، وراء السلطة التي ربما تخلّصني بجبروتها من ذلك المحتال، فقد كنا نحن الأطباء نملك عري الناس ولهفتهم، نملك أن نطمئنهم أو ندفنهم في الوساوس، ولكن لا نملك القوة الباطشة التي نحمي بها أنفسنا في ساعة احتياجها.

استقبلني العقيد باسمًا، زيه الأخضر نظيف ولامع، سلاحه متوفر على الخصر، ورتبته العسكرية ثابتة على كتفيه، ولا تشبه



رتبة الشاويش خضر التي كانت تتأرجح بفعل تفكك الخيوط، كان ثمة عدد من الضباط الشباب يتحلقون حوله، يتبادلون الحديث بلا رسميات، وعدة ترامس تحوي شايًا وقهوة موضوعة في المكان. أخبرته باختصار عن معضلتي الجديدة التي وُلِدت بولادة عيادتي، وتطوع للمساعدة بلا تردد، وكانت فكرته هي نفسها فكرتي، أن نغربل حي النور وأحياء أخرى مشابهة في بيئتها ومجتمعها، وحدنا بحثًا عن صديقي القسري، ولا نلجأ لأي جهة أخرى، كمركز الشاويش خضر، ذي الشريط المتأرجح، لأن المحتالين في رأيه يرتبكون عند رؤية النجوم والصقور المتراصة على الأكتاف، حتى لو كانت رتب جيش، وهكذا تواعدنا في النهار التالي، لنقوم بتلك الغزوة التي ربما تسفر عن شيء، أو لا تسفر عن شيء على الإطلاق. كانت البلاد تخضع لقانون الطوارئ العنيف في ذلك الوقت، وكان مجرد وجود عسكري حتى لو كان عابرًا في أي مكان، كافيًا لفك الألسنة، وحصد ثرثرتها. لم أخبر ممرضي عز الدين عن تلك المهمة، حين رأيته صباحًا، يلتهم فطوره المعتاد أمام كشك التيجاني، استأذنت من زملائي بالقسم، وغادرت برفقة العقيد الذي مرّ ليأخذني بعربته العسكرية.

كانت المهمة شاقة وطريفة في نفس الوقت، انتهت بعد أربع ساعات من البحث والسؤال، والدوران في الحفر والأزقة، وشرب شاي هنا وقهوة هناك، وكانت حصيلتها سبعة عشر شخصًا يحملون اسم (إدريس علي)، وما كان بينهم النحيل ذو الشعر المنكوش، الذي يرتدي زي جنود الصاعقة، ونبحث عنه.. ولا



عثرنا على شخص يعرفه أو يمت إليه بصلة القرابة كما كنتُ أتوقع.

عثرنا على (إدريس علي) الرضيع في المهد يصرخ من جوع ولا يوجد حليب لإسكاته، والشيخ المسن الذي أقعده الروماتيزم وضعف العظام، والعاطل عن العمل، الذي يتنقل من ظل إلى ظل، الذي فقد إحدى عينيه، من طعنة سكين في مشاجرة قبلية، والذي عاد من الخليج العربي بعد عشرين عامًا من الاغتراب لينضم إلى أهله، وذلك المتخلف عقليًا الذي يطارده الأطفال بالحجارة في الشوارع، إدريس البحَّار، والنجَّار وطالب الجامعة، وحلف علينا أحد هؤلاء الذين يحملون اسم (إدريس علي)، وكان جزارًا في السوق الشعبي للحي، أن نتغدى في بيته، وفعلنا إكرامًا لقسمه. كان أطرف ما صادفنا في تلك الحملة الغريبة، هو أن عثرنا على امرأة في نحو الأربعين، لم تتزوج قط، تقيم في أحد البيوت الطينية وحدها، ترتدي ملابس الرجال المكونة من الجلباب والعمامة، وتدخن سجائر البحَّاري المحلي، ورسمت على وجهها شاربًا داكنًا بالفحم، تجدد رسمه يوميًا، وكانت تملك محلًا في السوق لبيع الخضروات، لكنَّها لا تجلس فيه إلا نادرًا. كان اسمها في الماضي، عواطف علي، لكنَّها استرجلت فجأة بعد أن أعجبها عالم الرجال الواسع في ضياعه، وجبروته، كما قالت، سمَّت نفسها (إدريس علي)، وحاربت بضراوة كل المحاولات التي بذلها أهلها وأقاربها وجيرانها، لإعادتها إلى عالم النساء، بما في ذلك الاستعانة بشيوخ الدين، وأطباء علم النفس، ورجال مزواجين جاءوا



بهم لخطبتها. تلك المرأة (المتأدرسة) بالذات أكرمتنا بسخاء بعد أن حلفت طلاقًا كما يحلف الرجال، كان صوتها خشنًا وعاليًا، وكنتُ أتمعن في وجهها الذي حوَّلته إلى وجه شاب، وأفكر في كتابتها مستقبلًا، بينما العقيد يبادلها الحديث بمودة، ولا يبدو مندهشًا من شكلها أو سلوكها، يخاطبها باسم إدريس، كما يخاطب إدريسًا حقيقيًا، وليس أنثى أفلتت من أنوثتها، ولم تفلت كاملًا، ويبدو صدرها منتفخًا تحت جلبابها الرجالي الأبيض.

كنا قد مررنا على السوق في تلك الغربلة، تمعَّنا في المقاهي الشعبية، ومحلات الحلاقة شبه الخالية، وأماكن تجمع النجارين والحدادين، وناسجي أسرَّة الحبال، وحتى بائعات الشاي والقهوة والفول المدمس، وشاهدت قريبي فضل الله، صاحب السمك الجنتلمان، أمام محله، يفرغ شحنة من السمك من ظهر عربة مكشوفة بمساعدة سائقها، وبدا لي مرتبكًا وهو يلوّح بيده السليمة، وكنتُ متأكدًا أنه سيزورني عاجلًا أو آجلًا، مستفسرًا عن سر تلك العربة العسكرية، وذلك الرجل المدجج بالنجوم الذي يقودها وأجلس بجانبه.

قال لي العقيد عمر ونحن نخرج من حي النور ببطء، متبوعين ببعض طلاب المدارس الذين بهرتهم العسكرة، وركضوا خلف العربة:

- سيعود صاحبك بلا شك باحتيال جديد، لا تيأس.. سوف أخلصك منه.

سألته إن كان ينصحني بنقل عيادتي إلى مكان آخر، أو



إغلاقها تمامًا، فلم يوافق، كان يرى أن أمثال إدريس، يتبعون فريستهم إلى أي مكان تذهب إليه، ما داموا قد صنَّفوها فريسة، وعلي أن أبقى حيث أنا، ولا فكرة إلغاء العيادة المسائية نفسها، فكرة صائبة، لأنني أعمل بالمستشفى، وهي أكثر تعرضًا للاقتحام من عيادة بعيدة، تعمل في زمن محدود.

كانت قراءته لما سيحدث جيدة، وكان مجيء الحاج عوَّال، وزوجته خديجة، وابنتهما الشابة فرجيت، من منطقة (قرورة) البعيدة، بعد ذلك، معضلة أخرى شديدة التعقيد، لأنها لم تمسني وحدي، ولكن مسَّت العائلة كلها.



7

ذلك المساء من يوم الجمعة، كنتُ عائدًا من عقد قران سلس، ساهمت في إنجازه وسعدت كثيرًا بذلك، فقد أخبرني ممرضي عز الدين في أحد الأيام، وكنا قد فرغنا من معاينة المرضى، واستعددنا لإغلاق العيادة، بأنه يريدني في أمر هام، لكنَّه محرج مني ولا يعرف كيف يبدأ. كان يقف أمامي مهتزًا، يطرقع أصابعه باستمرار، وقد ابتل جسده الداكن الضخم بالعرق، ويتلفت نحو الباب الموارب للغرفة في قلق. شجَّعته على الكلام وأن لا حرج بيني وبينه، ونحن نعمل معًا منذ مدة ليست بالقصيرة، فقال بعد تردد، إنه لا يعرف إن كنت معجبًا بالمريضة سماسم، وأريد الزواج منها حقًا أم لا؟، ولذلك يريد أن يعرف إجابتي الآن، حتى يدخل إلى موضوعه.

ضحكت بعمق، وكانت أول ضحكة بهذا الشكل أطلقها، خلال تلك الأيام التي لم يظهر فيها أي احتيال جديد، لدرجة أنني بدأت أقتنع أن إدريس علي قد تركني أخيرًا، ويسعى وراء صيد جديد بعيد عني وعن حي النور. أخبرت الممرض المهتز أن تلك السماسم لا تعدو كونها مريضة نفسية ولا تعامل إلا بهذه الصفة،



ولا يجب أن يفكر كما يفكر العامة، وهو رجل خبير في الحياة، إضافة إلى أنها لا تناسب مستواي التعليمي والاجتماعي بأي شكل من الأشكال، ثم سألته، لماذا أراد أن يعرف؟.

كانت المفاجأة أن أحد أقاربه قد رأى سماسم مصادفة، منذ أسبوعين حين جاء لزيارته وكانت موجودة بين عدد من المرضى، تنتظر دورها في الدخول، أعجبته بشدة، وأراد الزواج منها بأي ثمن حين عرف أنها مطلقة بلا أطفال، وسأل عز الدين أن يتوسط له لدى أهلها، إن كان يعرفهم، أو يدلّه على بيتها وسيذهب وحده. كان الرجل يعمل سمسارًا للعقارات، يملك مكتبًا مجهّزًا في السوق الكبير، دخله جيد للغاية، وتزوج ثلاث مرات من قبل، لكنَّه لم يحب أيّا من زوجاته ولم ينجب منهن أطفالًا، بعكس سماسم التي سقط في حبها من النظرة الأولى، والآن يفكر فيها بلا انقطاع.

كان خبرًا سارًا بلا شك، أن يأتي مخلِّص هائم، يعتقني من تلك السماسم، وأعرف بحكم خبرتي أنها سترضى وستتزوجه، ولا كانت تحبني حقيقة كما أشاعت، ولا أعتقد أن أحدًا آخر طرق بابها، بعد أن تحررت، كما تدعي دائمًا، ولكن امرأة بأنوثة لا يقدّرها أحد في حي بائس، وتسعى للفت الأنظار. عريس لسماسم المجنونة، يقول بأنه سيكون أسعد رجل في العالم، لو قبلت به زوجًا، وأقول في سري إنني سأكون أسعد منه، وسأبذل جهدًا كبيرًا لدى أهلها، حتى لو اضطررت لمصادقة شقيقها النشال، ومنحته جيبي الخاص ليسرقه. طلبت من عز الدين أن يحضرها أولًا إلى



العيادة حتى أكلمها، وأرى ما سيكون، ثم نقرر الخطوة التالية بعد ذلك.

خرج عز الدين مبتهجًا بلا اهتزاز، وجاءني بعد عشرين دقيقة فقط، بالمهووسة سماسم، وكان بيتها قريبًا من العيادة، على بعد شارعين فقط. كانت مبهرجة بشكل لا يصدق، ترتدي ثوبًا أبيضَ مطرزًا بورد أحمر، تحته قميص وردي، على وجهها مساحيق كثيفة، وعلى رموشها طلاء بنفسجي، لا أدري كيف أحضرها، ولا متى تبهرجت بذلك الشكل، لكنَّها كانت فرحة، وعطرها الزيتي برائحة الليمون، غطى على روائح الغرفة كلها.

- شكرًا يا دكتور.

قالت، وتراجعت إلى الور اء في مقعدها، كانت تتأملني بشغف، وأرى في عينيها نظرة جنون حقيقية.

- شكرًا على ماذا؟

- على أنك استدعيتني لرؤيتك.. ظننتك تكرهني.

تركتها حتى هدأت تمامًا، وسكنت أصوات أساورها الذهبية علي يديها القلقتين اللتين كانتا تتحركان باستمرار، وأخبرتها بوضوح وصوت هادئ جدًا، بأنني لا أكرهها كما تظن، ولا أكره أي مريض آخر يتردد على عيادتي، وأنني مخطوب لإحدى قريباتي في العاصمة منذ كنتُ طالبًا ثانويًا، لكنني عثرت لها على رجل مثالي سيسعدها بلا شك، لأنه أحبها منذ أول مرة رآها فيها، وهو مثلها لم يسعد في زيجات سابقة، ويسعى للسعادة معها. أخذت أعدّد لها محاسن رجل لم أره ولا أعرف عنه شيئًا أكثر مما



قاله عز الدين. وأسرفت في الخيال وأنا أصف لها مشاعره، وعدد الليالي المؤرقة التي قضاها يفكر فيها، وكدت أرتجل لها قصيدة غزلية، تصف جمالها، أنسبها للرجل.

تلك اللحظة رأيتها تبكي، دموع متشابكة كخرز معقود، خرجت من عينيها الملونتين، وصنعت خطين، أشبه بجرحين عميقين وسط تلك الزينة.

- لماذا تبكين؟

قالت بعد أن سكن بكاؤها، وجففت الدموع بمنديل أزرق، أخرجته من حقيبة قماشية كانت تحملها:

- لا أصدق أن أحدًا أحبني..لا أصدق.. دعه يحضر إلى البيت.. يحضر حالًا.

ثم نهضت واقفة، وكانت على شفتيها ابتسامة واسعة جدًا. لقد صدق حدسي، والأنثى غير المقدَّرة في حي لا يقدر أحدًا، تحس الآن بأنها نجمة.. كانت تسير بخطى رنانة، تلقي برأسها يمينًا ويسارًا، ولا بد أنها كانت تغني لأن ثمة غناء تردد في تلك اللحظة.

في اليوم التالي، كنا، أنا وعز الدين وأخي الأصغر الذي أراد مرافقتنا، والعريس المتأنق بثوب نظيف، وعمامة غالية، وحذاء من جلد النمر الأصلي، نتعثر في الشوارع الضيقة، ذاهبين إلى بيت آل سماسم، كان اسم الرجل محجوب، وكان في نحو الخمسين من عمره، وجاء إلى العيادة بعربته الخاصة من ماركة كورونا اليابانية، وأخبرني في عجالة بأنه يملك بيتًا في حي (مايو) الشبيه



بحي النور في غليانه، وأرضًا فضاء في بقعة غالية من المدينة، ولن ينسى ذلك الجميل أبدًا، أنني ساعدته في بدء حياة جديدة بعد أن يئس. عثرنا في بيت آل سماسم الذي كان مبنيًا من طوب متماسك، ومدهونًا بالأبيض المنقوش بنقشة زرقاء، وأمامه مصطبة كبيرة من الأسمنت، على أمها وأخيها الأكبر الذي يعمل حدادًا في إحدى الورش ويتولى شؤون العائلة بعد وفاة والده، وفتاة صغيرة تشبهها إلى حد ما، بينما كان أخوها النشال، ذو الوشم المنحوت على كتفه، غائبًا ولا بد أنه كان في السجن، أو في أحد الأماكن المزدحمة، يمارس نشاطه. وقد كان العريس المرتقب يعرف تفاصيل أسرتها كاملة بعد أن أخبرته صراحة، وتركت له حرية الخيار، أن يمضي في مشروعه إلى النهاية، أو يغير رأيه، لكنَّه لم يتراجع عن حبه وطلبه الزواج، كان عاشقًا كبيرًا بلا شك.

لم تكن ثمة مفاوضات كبرى في تلك الجلسة، ولا كلام كثير عن مقدم المهر ومؤخره، ومنصرفات العرس، من حفل وزفة، وعشاء للضيوف، ولا اهتمت الأسرة بسؤال العريس عن أهله، وقبيلته، وأسباب طلاقه لثلاث نساء من قبل، وأشياء أخرى عادة ما يُسأل عنها الشخص عند القدوم لخطبة فتاة، قالت الأم إنها تكتفي بمجيء الدكتور شخصيًا، ومجيء عز الدين الذي تعرفه منذ أربعين عامًا وأجرى ختان ولديها، وقال الأخ الأكبر إنه سعيد جدًا بعثور أخته على رجل شهم، بعد أن تعذبت كثيرًا في زواجها السابق، وجاءت العروس تتهادى كعارضة أزياء، سلَّمت علينا بجرأة، اختصت العريس بنظرة فاحصة، وابتسامة راضية،



وانصرفت، وكانت الجمعة القادمة هي الموعد الذي حدد لعقد القران، وذهبت إليه لأكون شاهدًا فرحًا بتخلصي من سماسم.

كنا نسكن في حي الخليج، الذي أنشيء في نهاية سبعينيات القرن الماضي، بعد أن عرف الناس سكة السفر إلى بلاد الخليج العربي، عملوا في شتى الوظائف هناك، وساعدوا في التنمية والتعمير، وعاد بعضهم بنقود وفيرة مكّنتهم من إنشاء مساكن فاخرة أو متوسطة، في ذلك المكان، وأماكن أخرى في شتى البلاد أطلق عليها أسماء مدن خليجية. كان بيتنا واسعًا بعض الشيء، به حوش كبير، وعدة غرف تكفي لإيواء العائلة، وصالون واسع لاستقبال الضيوف، وصالات متعددة، تحيط بالبيت، ننام أو نجلس فيها حين يكون الجو معتدلًا، يغني عن هواء الغرف الذي تضخه مراوح الكهرباء، على باب البيت وجدت إحدى أخواتي تنتظرني، وتخبرني بلهفة أن ثمة ضيوفًا من معارفي، قدموا من منطقة(قرورة) البعيدة، والآن جهّزوا لهم عشاءً خاصًا، وأسرَّة في الصالة الخارجية، حتى يناموا..

استغربت بشدة من قولها، فليس ثمة معارف لي يأتون ولا يعرفهم أهل البيت، ومنطقة قرورة التي تقع على الحدود مع إريتريا، تلك لا أعرفها ولم أزرها قط، ولا أظن أبدًا أن لي معارف فيها. فكرتُ في زملاء دراسة من تلك المنطقة ربما زاملوني يومًا ما، وأناس عالجتهم وصاحبتهم بطريقتي السريعة في مصاحبة المرضى، وعابرين، عبروا مصادفة في حياتي، ولم أعثر على أحد، دخلت ولا يفارقني الاستغراب، أتعثر بثلاث حقائب قديمة من



الصفيح الصدئ، موضوعة في ممر الدخول، ووجوه متشابهة لرجل وامرأة وفتاة في عشرينيات العمر.. لا بد أن ثمة خطأ ما قد حدث، وهؤلاء أناس ضلُّوا إلى وجهتهم، وعثروا على بيتنا مصادفة.

- من أنتم؟

سألتهم في حدة، ولم تكن لدي نية لمد يدي لمصافحتهم، لكن الرجل نهض مسرعًا، احتضنني بقوة، وهو يقول:

- الدكتور.. أليس كذلك؟
- نعم.
- نحن حجَّاج بيت الله الحرام الذين حدثك عنهم (إدريس علي)، الحاج عوَّال، وزوجتي الحاجة خديجة، وابنتنا فرجيت.
- حجَّاج؟.. (إدريس علي)؟ ما هذا؟
- ماذا يا دكتور؟ لقد أخبرنا إدريس بأنه رتَّب معك أمر إقامتنا عندك بدلًا من الفنادق الغالية، وتسفيرنا بالبواخر إلى مكة حين زارنا في قرورة، هو من وصف لنا البيت.. ووصلنا بسهولة شديدة، من موقف الباصات.. بيتكم سهل الوصف..ما شاء الله بيتكم واسع، تفضل اجلس.

كانت عيناي تلمعان بالشرر، في رأسي عرق يوشك أن ينفجر، وأحس بالذنب أنني لم أشرك عائلتي في أمر إدريس، اعتبرته أمرًا خاصًا بعيادتي أو بالمستشفى، ولم أظنه أبدًا سينزح



إلى البيت. واكتشفت بعد أن تركت حجَّاج إدريس من دون أن أطيل جلستي معهم، وأشاركهم فرحتهم، وتعثرت داخلًا إلى الجانب الأسري من البيت، أن والدي كان يعرف، ولم يخبرني بمعرفته، ذلك أن قريبنا فضل الله، بائع السمك الجنتلمان، كان قد زاره في مكتبه الواقع في إحدى عمارات السوق الكبيرة، أخبره القصة كاملة، واسترد الثلاثة آلاف جنيه منه، في تصرف وغد ما ظننته يصدر من ذلك القريب، وكان الأمر بيني وبينه. كان والدي رجلًا كريمًا ومسامحًا، وشديد التدين، عاش بتلك الصفات حتى رحل، ووضع بيته في خدمة حجَّاج أبرياء وقعوا في شباك محتال كما وقعت، حتى يسافروا، وبعد ذلك سيرى ما يمكن فعله في أمر إدريس، وهكذا قضينا ثلاثة أيام مجهدة، مشغولين بأولئك النزلاء، في أكلهم وشرابهم وغسيل ثيابهم، حتى كان موعد سفرهم، وسافروا من بيتنا كأي أهل عاديين من أولئك الذين كانوا يأتون من الشمال، يقيمون عندنا ونودعهم ساعة السفر.أكثر من ذلك، هو تبرعي بعمل تلك الأيام الثلاثة في عيادتي من أجل مصاريفهم، فقد أخذ إدريس منهم نقودهم كلها بحجة استبدالها دولارات أو ريالات سعودية، لكنَّهم لم يروها أو يروا إدريس، بعد ذلك أبدًا.

لا يوجد إدريس ولا متاريس. جملة الشاويش خضر، ذي الشريط العسكري المتأرجح ترد إلى خاطري، وأود لو ذهبت إليه في حي النور، وخنقته، فلم يكن الأمر إدريسًا ومتاريس فقط، ولكن كارثة لا أدري متى ستنتهي.



8

أنا الآن في حي المرغنية الشعبي، في الجانب الجنوبي من المدينة، عند الشيخ الحلمان، في عيادته الشرك التي يمارس فيها طقوسه، وطِبَّه النفسي بلا رقابة من أحد، ولا شكوى حتى من أولئك الأطباء النفسيين المتخصصين، الذين كانت عياداتهم في وسط المدينة، خالية بفعل انسياق الناس وراء الحلمان وغيره من أولئك المعالجين.

كان اسم الرجل موحيًا بشدة، ويا له من اسم، لا أعتقد أنه اسمه الحقيقي، هي أسماء يخترعونها بذكاء، وتساهم بشكل أو بآخر في انتشارهم وسط البسطاء.وقد سمعت من قبل بأسماء مثل الشيخ الكشّاف، والشيخ عابر البحر، والشيخ حافي القدمين، والشيخ المقدسي، وكانت لشخصيات لا بد تشبه الحلمان ويشبهها. كنتُ أبحث عن حامد رطل، الرجل المسن الفصيح الذي نازلني في عيادتي وكسب، وأعرف أنه يعمل مساعدًا للحلمان، ويطمح لافتتاح عيادته الخاصة بعد أن تدرَّب. لن يكون اسمه رطل حين يفعل، أنا أكيد من ذلك، سيعثر على اسم موحي يستخدمه بلا شك.



كانت العيادة عبارة عن بيت صغير من الخشب الخشن، معروش بالأسبتس، وسط زقاق ضيق من أزقة الحي العشوائي، استدللت عليه بسهولة شديدة، وما كان بالمرغنية كلها وما جاورها من الأحياء، ساكن لا يعرف من هو الشيخ الحلمان ولا أين يقع مقره، فقد تطوَّع العشرات لإرشادي بطيب خاطر، وركب اثنان منهم معي حتى باب البيت.

كان الباب مدهونًا بالأخضر، وقد رسم عليه بالأسود، منظر الكعبة الشريفة، وتحتها مباشرة كتب بالأبيض، وبخط متعرج، يشبه خطوط التلاميذ الصغار: حجًا مبرورًا.. وسعيًا مشكورًا، وذنبًا مغفورًا..صلّوا على خير المرسلين.

ذلك الرسم، وتلك الكتابة أيضًا من أسلحة غزو الأدمغة، ولن يخطر ببال البسطاء اليائسين بأمراض وهمية، لم يشخّصها الأطباء، أنهم يرتكبون إثمًا وهم يطرقون أبوابًا، صبغت بالورع والتقوى، والصلاة على الرسول الكريم.

كانت العيادة مزدحمة جدًا في ذلك المساء من شهر أكتوبر، سحابة من البخور الكثيف، خانق الرائحة، تغطي هواء الصالة المتوسطة في اتساعها، وعدد بلا حصر من الرجال والنساء، يتقاسمون الأرض على حصير من سعف النخيل الأصفر، ويحدّقون جميعًا نحو الباب المغلق في الوسط، والذي لا بد يوجد خلفه الحل أو الفرج من تلك المحن التي تؤرقهم، وكان حامد رطل متأنقًا في زي أخضر، لا بد أنه زي المهنة المسائية، على رأسه طاقية حمراء لم تفلح في تغطية شعره الأبيض كاملًا، وحول رقبته



مسبحة من الخرز اللمَّاع، ويقف عند باب الغرفة المغلقة، الذي ينساب البخور من تحته إلى الصالة.

كنتُ أرتدي اللباس المحلي المكون من الثوب الأبيض والعمامة البيضاء، وقد نزعت نظارتي الطبية قبل دخولي، ووضعتها في جيبي، لذلك لم يعرفني حين لمحني أدخل، ظنني مستشفيًا عند شيخه، ولا عرفتني تلك الفتاة النضرة التي كان وجودها في تلك البقعة المريبة، مفاجأة حقيقية لي، بالرغم من أنها أدارت وجهها نحوي، تأملتني بعمق حين دخلت.. إنها هويدا الشاطئ، فتاة الأرق والحب من طرف واحد، التي دلقها إدريس في طريقي ذات يوم، ولا بد تبحث عن حل لمشكلتها، بعد أن رأتني ورأت غيري من الأطباء ولم يفدها أحد.

حل المربوط، العودة بالغائب البعيد، إخراج المس الشيطاني، توحيد القلوب بالمحبة.. عبارات رنانة يستخدمها أولئك المعالجون، وتشد الجهلة والبسطاء إلى الشرك، لكنني ما ظننتها أبدًا، تشد فتاة شاعرة، وتعمل في مصرف معروف، مثل هويدا الشاطئ. سأكمل مهمتي في السؤال عن (إدريس علي) ومحاولة معرفة مكانه من حامد رطل، ثم بعد ذلك، أحاول إخراج تلك الفتاة من شرك الحلمان.

- مرض نفسي، أم سحر أسود، أم حجاب يأتي بالبعيد؟

كان حامد رطل يسألني وقد التقط من الأرض دفترًا كبيرًا شبيهًا بدفاترنا التي نسجل عليها أسماء المرضى، فتحه على صفحة بيضاء.



- وما الفرق؟

أرد محاولًا أن أغير صوتي.

- الفرق كبير..

يرد العجوز،

- أولًا لابد من إخبار الشيخ بسبب الزيارة وشكوى المريض قبل أن يدخل.. ثانيًا كل شيء له أجره الخاص..

لم يبد خائفًا أو مرتابًا، كان بالضبط مثل الممرض عز الدين، يمارس نشاطًا مشروعًا تحت سمع وبصر الدنيا كلها. وخطر لي أن أسأله عن المتاجرة بآلام الآخرين كما سألني من قبل، لكن هؤلاء الناس قد تبرمجوا على حمل الضغينة تجاه الأطباء وحدهم، ولم يتبرمجوا على حمل الضغينة تجاه أنفسهم، أو تجاه التجار الذين يحتكرون القوت اليومي، ويتفننون في وضع أسعاره، إضافة إلى أنهم يتلقون مبالغ ضئيلة، لكن باستمرار ولا يظنونها تؤثر على قوت أحد.

طلبت منه ان يرافقني إلى الخارج لأمر لا علاقة له بالجن أو المرض النفسي، ولم يرتعد، أشار إلى أحد الحاضرين، وكان رجلًا طويلًا، يرتدي سروالًا أبيض من قماش التريفيرا الشفاف، وقميصًا أزرق مفتوح الأزرار، ويتحرك في الصالة في قلق، بأن دوره هو القادم، وعليه أن يدخل إذا خرج المريض من عند الشيخ، وعلى ضوء فانوس شاحب معلَّق أعلى الباب الخارجي، تأملني الرجل مرة أخرى، بعد أن نزعت عمامتي، وأعدت النظارة إلى



وجهي، وعرفني، هتف وهو يمد يده مصافحًا:

- الدكتور؟.. فرصة سعيدة يا طبيب.

لم أكن أشاركه الرأي بأنها فرصة سعيدة، وقد أحسست باكتئاب مفاجئ من وجود هويدا الجميلة، وسط أولئك الناس الذين لا يشبهونها، ولا تشبههم وأكاد أجزم أن (إدريس علي)، محتالي الخفي الهارب، قد اصطادها مرة أخرى في أحد طوابير القلق، وأرسلها مغمضة العينين إلى هذا الحلمان.

- اسمع يا حامد.. أنا أبحث عن (إدريس علي)..أريد مكافأته عن أعمال أنجزها لي، أين أعثر عليه؟

- (إدريس علي)؟.. من (إدريس علي)؟.

بدا لي لسانه صادقًا في إنكاره، وملامحه المستغربة صادقة أيضًا، ولا بد أن أعرف الحقيقة.

- الشاب الذي أهداني قلم زينب الغالي، وأرسلكم إلى عيادتي بثلاثة باصات من ماركة روزا، هل نسيت؟.لقد كسرت القلم في لحظة انفعال وأنت ألصقته، هل تذكر؟

تملكتني في تلك اللحظة رغبة جارفة أن أسأله عن الشريط اللاصق الذي أخرجه من جيبه، وكيف تصادف وجوده في ذلك الجيب. الناس يحملون في جيوبهم أقلامًا، وعلب سجائر، وربما أكياسًا بها (تنباك)، وحلويات، وأدوية إن كانوا مرضى مزمنين، لكني لم أسمع أبدًا بشخص يحمل شريطًا لاصقًا في جيبه، بالطبع قمعت رغبتي ولم أسأله، وسمعته يقول:

- نعم.. نعم.. أتذكره الآن، صدقني لم أره سوى مرة واحدة



فقط، حين أخبرنا عنك، وعن إنسانيتك، وطلب منا تجميع كل معارفنا، والعلاج عندك مجانًا..وأرسل لنا تلك الباصات بسعر رخيص حتى نحضر.. لم أره مرة أخرى أبدًا.

- أليس من أهلك؟
- من نفس القبيلة، لكن ليس من أهلي.. كذبت عليك في العيادة.

صدقت العجوز حامد رطل، ولم يكن لديّ خيار آخر سوى التصديق، هنا لم يكن ثمة احتيال كبير كما يبدو، ولكن مباهاة من معتوه بصداقة طبيب، والأمر برمته يدعو للعجب. لم يسألني رطل عن تلك المكافأة التي أدخرها لإدريس، أطل من الباب مرة أخرى ليتأكد من سير الأمور، وعاد إليّ صامتًا.

- وتلك الفتاة المسجلة في دفترك باسم هويدا.. وتجلس في الركن مواجهة باب الدخول، هل هي المرة الأولى التي تحضر فيها؟
- قصدك التي ترتدي الثوب الأحمر الشيفون؟.. إنها تأتي باستمرار منذ شهر، ولا تدفع أجرًا.. اسمع.

اقترب من أذني هامسًا:

- الشيخ سمَّاها المبروكة، خطبها لنفسه، ورضيت..وسيتزوجها في الأيام القادمة، حالما يطلّق إحدى حريمه الأربع.. هذا بيني وبينك، لا تخبر أحدًا أرجوك.. هل تعرفها؟



كانت صدمة عنيفة لي، وأنا أسمع ذلك الكلام الهامس، وأتخيل تلك الرقيقة في أحضان دجال، تمامًا كما حدث لمريضتي نجفة، صاحبة الصداع المزمن. لم أكن أعرف هويدا جيدًا، ولا كنتُ مسؤولًا عنها، ولا كانت تسكن عواطفي، ولا أعرف لم حزنت وتكدرت وأوشكت أن أقتحم العيادة الشرك، وغرفة الحلمان لأخنقه، وما فعلت شيئًا من ذلك، ولا رددت حتى على العجوز في شأن معرفتها، كان الأمر في الحقيقة عاديًا بشدة في مجتمع يقدر أهل الدجل أكثر من تقديره للعلماء، وما هويدا سوى فتاة قلقة منحها الحلمان أملًا، ثم افترسها، سأذهب.. هكذا عدت أدراجي وحاولت بعد ذلك في ليالٍ عديدة أن أكتب شيئًا من الشعرعلى الورق الذي هجرته منذ مارست الطب، ولم أكتب، تتراءى لي صورة فتاة ضائعة.. ضائعة باختيارها، وسط البخور والنار، ومستقبل لن يكون ورديًا بأي حال من الأحوال..



9

في أحد الأيام زارني الشاويش خضر في عيادتي. كان زيه نظيفًا هذه المرة، جراب سلاحه على الخصر مغلق ويبدو ثقيلًا بفعل سلاح حقيقي بداخله، وشريطه العسكري المنفلت دائمًا، ما عاد كذلك، فقد كان مثبَّتًا بالخيوط، ولا يوحي بأنه كان متأرجحًا في يوم من الأيام.

كنتُ قد تابعت ضياع هويدا الشاطئ مع شيخها، من بعيد، وبواسطة جار لهم تعرفت عليه مصادفة حين وجدته بالقسم برفقة زوجته التي أجرت لدينا عملية قيصرية، رزقت خلالها بتوأم من الذكور، عرفت أنها تزوجت من الحلمان بعد أن طلق من أجلها امرأتين من حريمه الأربع، والآن تساعده في جلب الزبائن، وإيقاد البخور، وتهيئة المكان للهوس، وقد استغنى بالكامل عن خدمات العجوز حامد رطل، الذي يسعى الآن لافتتاح عيادة خاصة به، ينافس بها شيخه القديم. قال الجار، إن هويدا لم تدع أحدًا من أهلها أو جيرانها لحضور زواجها المختصر الذي جرت مراسمه كلها في حي المرغنية، لكنَّه ذهب وحضر وعرف، ويحس مثلي بالرثاء لتلك الفتاة الرقيقة.



سماسم التي تزوجت من سمسار العقارات، قريب عز الدين، وانتقلت إلى بيته في حي مايو، تغيَّرت تمامًا كأنها لم تكن أبدًا تلك القديمة، زارتني مرتين بصحبة زوجها السعيد، وكانت مريضة محترمة، توقفت عن مضغ العلكة، وارتداء الثياب الشفافة، والأحذية ذات الكعوب العالية التي تؤرجح مشيتها، وغطت رأسها بحجاب ساتر، لا يظهر شعرها حين ينزلق عنه الثوب الخارجي، وكان العريس يبدو سعيدًا بالفعل، خاصة أن أحد الزملاء المختصين في التخصيب، أخبره بعد إجراء التحاليل المخبرية له ولزوجته الجديدة، بإمكانية أن ينجبا، والآن يسعيان إلى ذلك بشتى الطرق. وقد بشرت بأن يحمل الوليد القادم اسمي إذا كان صبيًا، وأن تضعه سمساسم في المستشفى وتحت إشرافي المباشر.

سألتها عن أخيها النشال الذي ما عدت أراه يتحاوم في الجوار منذ فترة، فتصدى العريس لسؤالي، أخبرني بأنه تحت رقابته شخصيًا، ووظَّفه مساعدًا له في مكتب العقارات في السوق الكبير، بعد أن دفع كفالته وأخرجه من السجن في آخر سرقة قام بارتكابها.

لم يتردد اسم (إدريس علي) في الأجواء تلك الأيام، سوى مرة واحدة فقط، ولم يكن اسم محتالي الخفي، ولكن اسم تلك المرأة المسترجلة عواطف علي، حين جاءت إلى عيادتي مرة، سجَّلت اسمها الرجالي على دفتر عز الدين، ودخلت بخطوات سريعة، لتجلس أمامي وتسألني مباشرة عن عمليات تغيير الجنس التي سمعت عنها من بعض الناس، وإن كانت ستفيد في حالتها؟



تأملت شاربها المرسوم بعناية، ولحيتها الخفيفة التي أضافت رسمها مؤخرًا، وشعرها القصير المقصوص حتى جذوره، حين نزعت العمامة وكشفته أمامي، وتحسرت.. هذه أيضًا قصة محزنة، ومجنونة أخرى في عالم يضج بالمجانين، الأنثى الكاملة حين تغدو رجلًا ناقصًا، المرأة بمشاعر لا تمت للمرأة بصلة، والبؤس في كل شيء، ليس مسألة عيب جيني بحاجة إلى تعديل، ولكن سلوكًا غريبًا، ومستهجنًا، وبحاجة إلى طبيب نفسي بارع حتى يعيد الأمور إلى نصابها..

- لماذا يا عواطف؟
- لا تقل عواطف من فضلك.. أنا إدريس.

نهرتني بصوت لا يملكه حتى أكثر الرجال خشونة، ولا بد أنها تدربت تدريبًا شاقًا حتى أجادته، كانت تضع ساقًا على ساق، وتهزهز حذاء جلد النمر على قدمها اليمني، وثمة تجاعيد غاضبة في وجهها المصنوع. تغاضيت عن صوتها الكبير، وقررت محاورتها تمضية للوقت، ولم يكن بالعيادة مرضى آخرون في تلك الساعة.

- ولماذا يسعى إدريس لتغيير جنسه بالعمليات ما دام هو إدريس؟
- ظننتك متفتحًا بفضل تعليمك العالي، لكنك مثل العامة سكان حي النور، أنا أتبع مشاعري وليس جسدي، مشاعري هي مشاعر إدريس، وإن وجدت طريقة لأصبح إدريسًا كاملًا سأفعل.. فقط أخبرني من دون



فلسفة.. هل هذا ممكن؟

- غير ممكن.

أخبرتها بصوت قاطع، وشرحت لها الخواص الفسيولوجية والجسدية التي تملكها بفعل خلقها، ولا يمكن العبث بها على الإطلاق، كما أنها مسلمة، ويتوقع أن تتبع دينها الحنيف الذي ينهي عن هذا السلوك. وكانت تعرف ذلك جيدًا، وتمعن في تمرير أصابعها على الشارب المرسوم واللحية الصغيرة، وتهزهز حذاء جلد النمر أمام وجهي، وتستسخف كلامي الذي اعتبرته موعظة بلا معنى، وليس كلام طبيب، ولا أجد لها حلًا حتى نهضت غاضبة، وهي تشتم، وتقسم ألا تأتي إلى عيادتي مرة أخرى أبدًا، وتحرّض معارفها، ألا يأتون.. هذه ليست مثل سماسم المعتدة بجنسها، المبهرجة بأنوثة تحاول إبرازها، وعثرت على الحب أخيرًا، ولا أعتقد أن بإمكان أحد مساعدتها في الوقت الحالي، وقد تملكتني الرغبة في إرسالها للشيخ الحلمان، لعله يمنحها أملًا ثم يسد بها فراغه الرابع في عدد الزوجات، لكنني ضحكت في سري، حين تصورت نفسي معاونًا لدجّال، وتصورت عواطف - إدريس، سببًا في شلل الحلمان، وإصابته بجلطة في القلب.

جلس الشاويش خضر أمامي رافعًا صدره إلى أعلى، وهو يردد:

- لست مريضًا يا دكتور، ولكني جئت أبشّرك.
- تبشّرني بماذا؟
- لقد اعتقلنا صاحبك المحتال إدريس.



- اعتقلتوه؟ متى وكيف؟

نهضت من مقعدي وأنا لا أصدق تلك البشرى السعيدة، التي جاءت من رجل قال ذات يوم إنه لا يوجد إدريس ولا متاريس في هذا المكان الذي يخبره جيدًا، هل حقًا حدث ذلك؟

- طبعًا اعتقلناه، ومتلبسًا أيضًا بالاحتيال على عائشة، يحاول سرقة عنزة منها.. وستذهب معي للتعرف عليه.هل تعرف عائشة؟
- لا.
- غير مهم.. إنها مجرد امرأة لديها عنزة.
- وكيف عرفتم أنه المطلوب؟
- عيب يا دكتور..هذا شغلنا.. هل أسألك كيف تعرف انتفاخ القولون، وانفجار المرارة وانقلاب المشيمة في الرحم؟

كان يقول، ويتحسس بيده بطنًا ناتئًا، منتفخًا بالغازات، لا يشبه بطون العسكريين في شيء، وقد حاولت مقارنته في تلك اللحظة، بالعقيد عمر، ذي الجسد الباسق، والقامة الصلبة، ولم أجد رابطًا.

- وأين هو الآن؟
- عندنا في القسم تحت حراسة تولاب.
- آسف حضرة الشاويش.. لكنك أخبرتني من قبل بأن لا وجود لإدريس في هذه المنطقة، هل تذكر؟

لم يتكدر كما كنتُ أتوقع، ولا تغيرت ملامحه الباسمة.. رد



بثقة:

- نعم لا يوجد مجرم اسمه إدريس ولا متاريس في منطقتي، وأعرف أنك بحثت بنفسك يومًا برفقة ضابط كبير من الجيش ولم تعثر عليه.. الأخبار تصل يا دكتور وهذا المجرم دخيل على الحي..لا يقيم فيه.

هزمني بلا شك، والرجل القديم ذو الشريط المتأرجح الذي يعمل في قسم بائس، ما ظننته بهذا الاعتداد حتى وهو يأمرني صراحة ذات يوم، بألا أردد كلمة الفشل أمامه.

أخبرت عز الدين بتلك التطورات الجديدة، رجوته أن يصرف باقي المرضى، إن كان ثمة مرضى بالخارج، وكانت الصالة لحسن الحظ خالية، ولا يوجد اسم جديد على الدفتر. أغلقنا العيادة، وانطلقنا بالعربة إلى قسم الشرطة، ولم ينس الشاويش خضر أن يغفو هذه المرة أيضًا، ولمدة دقيقتين فقط، وأن يردد ونحن نهبط أمام القسم، بأن العربة مريحة، فقط كان زميله الشاب يحرس المتهم داخل القسم، ولم يستطع الخروج لتأدية التحية المضحكة في استقباله.

كان (إدريس علي) الذي تم اعتقاله متلبسًا بسرقة عنزة عائشة، جالسًا على الأرض، مقيد اليدين والقدمين، ويتلفت في هلع، وكان لدهشتي الشديدة، شخصًا آخر، شخصًا مختلفًا تمامًا عن المطلوب. صحيح أنه نحيل ومنكوش الشعر، ويرتدي زي جنود الصاعقة المرقَّع، لكنَّ وجهه مختلف غاية الاختلاف، إنه وجه صبي في الثامنة أو التاسعة عشرة، عليه جرح قديم بفعل



سكين أو مطواة، وفي عينيه رمد ودموع.

- هل هذا هو المحتال؟

صرخت في الشاويش منفعلًا.

- نعم هو.. هل تشك في ذلك؟
- طبعًا أشك.. هذا صبي مسكين وليس إدريس النصاب.
- كيف؟

بدأ الشاويش يهتز، وخلت شريطه المثبت بالخيوط، سينفلت مجددًا بفعل اهتزازه، لقد انهزم بلا شك، حين ألقى القبض على صبي جائع، وما زال ثمة محتال كبير، ووعر، بعيدًا عن يديه، أشفقت على الصبي والشاويش، والشرطي الشاب تولاب، الذي نهض من مقعده واقترب من الصبي، أمسك بيديه المقيدتين، وخلته سيحرره تحت ضغط المفاجأة، لكنَّه توقف وأخذ ينظر إلى رئيسه بغباء. لم ينطق الشاويش بأي كلمة إضافية، واستجاب لرجائي بلا جدال حين طلبت منه أن يقبل بكفالتي للصبي، ويطلقه فورًا، شرع في إجراءات الإفراج عنه، وخرجنا من القسم، وقد منحت الصبي عدة جنيهات، وطلبت منه أن يعود إلى أهله ولا يكرر السرقة، وكان من أسرة فقيرة كما أخبرني، وجائعًا ويدرس في إحدى المدارس الثانوية.

كان ما لفت نظري في تلك اللحظة، أن قلمًا شبيهًا بقلم زينب كان يطل من جيب قميصه الممزق.



10

اختفى مولد الهندي برد شاندرا، فجأة من مكانه في الحوش الخلفي غير المطروق كثيرًا، لبيت عز الدين، ومزّقت أسلاك الكهرباء التي كانت تصله بلافتة النيون، حيث يوجد اسمي وجامعتي، وتلك التخصصات المتعددة التي رصصتها، وأصبح لي بفضلها زبائن لا بأس بهم، يأتون لاستشارتي، ويساعدون بشدة في المنصرف اليومي.

كان يومًا كئيبًا بلا شك، ولا توجد فوانيس للإضاءة في العيادة بعد أن ألغينا خدماتها بالكامل منذ مجيئي، إضافة إلى تعودي الشخصي على مروحة طاولة صغيرة، كنتُ قد أضفتها مؤخرًا وينعشني هواؤها أثناء العمل. واضطر عز الدين أن يترك بيته بلا إضاءة، ويحضر فوانيسه كلها، وأسمع بوضوح أحدثه اختفاء صوت المولّد العالي، صوت امرأته يطنطن من الداخل، ويتحدث في هياج عن حمام مظلم، ومطبخ لا يستطيع أحد الدخول إليه لتحضير العشاء، وعيال في المدارس، تعطلت واجباتهم في ذلك اليوم.أخبرته أن يعيد الفوانيس إلى بيته بلا جدال، ويغلق العيادة في الحال، ونذهب معًا لتسجيل بلاغ



بالحادثة في مركز الشرطة، لعل الشاويش خضر يبدو أكثر تفهمًا بعد درس الصبي الجائع الذي اعتقله، باعتباره المحتال (إدريس علي)، ويسرع في مد يد العون. وافق عز الدين على مضض، واضطر إلى صرف عشرة مرضى مسجلين على دفتره، كان من بينهم سيد أحمد، البحَّار القديم الذي جاءني في الأيام الأولى لافتتاح العيادة، باحثًا عن شهادة باللياقة الطبية للزواج، لم أمنحها له، وأحلته إلى أحد المختصين، ومريض آخر اسمه شاطر الزين، كان من سكان حي النور القدامى، وهاجر إلى كندا منذ أواخر السبعينيات، وعاد مؤخرًا إلى البلاد لتلقي العزاء في والده.وقد زارني في مرة سابقة برفقة أخته المريضة بالربو الشُعبي، وتحدث كثيرًا، مستخدمًا إنجليزية ذات لكنة زنجية أمريكية، عن رداءة البيئة التي نعيش فيها، وغياب التأمين الصحي للمواطن وتخلفنا الكبير في مجال مكافحة الأمراض، لدرجة أن بعوضة صغيرة بلا قيمة تذكر، تسبب كل هذا الدمار للعنصر البشري، ومرض الجزام انقرض من العالم كله، وما يزال معششًا لدينا، يحمله المتسولون أمام المساجد وفي الأسواق والأحياء السكنية، وهذا الحي بالذات الذي تعيش فيه أسرته، لا يمكن اعتباره مكان سُكنى في أشد البلاد فقرًا. ولم ينس الأخ شاطر أن يخصني ببطاقة الأعمال الخاصة به، حتى إذا زرت كندا ذات يوم، اتصلت به، وكان مسجلًا عليها، أنه مبرمج كومبيوتر في إحدى المؤسسات، وعازف جيتار محترف في حفلات نهاية الأسبوع، بينما أخبرني عز الدين الذي لم يكن قد سمع بالكومبيوتر في ذلك الوقت، ولا رأى جيتارًا



يعزف من قبل، أنه كان تلميذًا فاشلًا في المدارس، وعمل طوال وجوده قبل الهجرة، نجارًا للكراسي والأسرَّة، وغرف النوم الرخيصة، وما زال محله موجودًا في السوق حتى اليوم.

أجَّلت الذهاب إلى قسم الشرطة دقائق، ووقفت على ضوء العربة، أحادث العجوز سيد أحمد، وكانت برفقته امرأة تضع نقابًا على وجهها وتقف على مبعدة في الظلام، كنتُ في غاية الفضول أن أعرف أخباره، وإن كان قد تزوج أم لا؟، وأخبرني أن المختص الذي أرسلته إليه، لم يطمئنه، على العكس أرعبه بشدة حين قال له صراحة إنه يشك بإصابته بسرطان البروستاتا، وطلب منه الذهاب إلى العاصمة لرؤية طبيب آخر سيفيده كثيرًا، لكنَّه تزوَّج رغم كل شيء من أرملة من أهله، لديها سبعة عيال ملأوا عليه البيت، والآن يستعد للسفر إلى مصر برفقة زوجته للعلاج هناك..

- سلّمي على الدكتور يا صفية.

نادى على المرأة المنقبة، فخرجت من الظلام، واقتربت منا، ، لم تمد يدها للسلام واكتفت بصوت خفيض رددته وسمعته بصعوبة: السلام عليكم. كانت ممتلئة، وقصيرة القامة، ولم أستطع تقدير عمرها بسبب النقاب. بعد ذلك سألني عن خطورة سرطان البروستاتا إن كان فعلًا مصابًا به، وقلت له كلامًا عامًا سريعًا لم يستوعبه، وردد أنه سيزورني مرة أخرى قبل السفر، ويأمل أن يجد مولدي الكهربائي قد عاد.

في مقر الشرطة لم يكن الشاويش خضر موجودًا، وعثرنا على زميله الشاب تولاب، منبطحًا على الأرض في الغرفة شبه



المعتمة، والمضاءة بفانوس صغير، يمارس تمارين اللياقة، وشد البطن وهو يلهث. ومن الزنزانة الضيقة الملحقة بالقسم، والتي يُحتجز فيها الموقفون مؤقتًا حتى يتم ترحيلهم إلى وسط المدينة، كانت تنبعث روائح العرق، والتبغ المحروق، وأصوات متابينة، تشكو من الحر والاختناق، وتطالب بالعدل والإنصاف.

نهض العسكري تولاب من تمارينه اللاهثة، التقط قبعته، وضعها على رأسه، وفتح دفتره الذي بلا غلاف، على صفحة بيضاء، وكان يرتدي صندلًا بيتيًا لا يمت للعسكرية بصلة، بينما على صدر زيّه بقعة كثيفة من زيت الطعام.

- أين الشاويش خضر؟

- في الحمام.. أنا المسؤول عن القسم الآن ماذا لديكما؟

وأتلفت باحثًا عن مبنى أو غرفة ربما تكون هي الحمام، ولم يكن ثمة شيء سوى هذه الغرفة التي نقف فيها، والزنزانة الملحقة الضاجة.

- سأنتظر الشاويش.

قلت وأرى على وجه العسكري الشاب، علامات خيبة الأمل في لحظة أراد أن يكون فيها شخصًا ذا قيمة، لم أكن في الحقيقة أود إحراجه، لكنني تعودت على غطرسة الشاويش، وطريقة تحليله المضحكة، وإمكان أن يصبح شخصية روائية فيما بعد، وهكذا خرجنا أنا وعز الدين، جلسنا داخل العربة حتى ظهر الشاويش من أحد الأزقة، يمشي على مهل، ويحمل إبريقًا من الماء في يده، وعلى ضوء الفانوس الكبير المعلّق على باب القسم، رأيت شريطه



العسكري وقد عاد إلى انفلاته القديم مرة أخرى.

- الدكتور؟.. سرقوا عربتك مرة أخرى؟

وكان بالطبع سؤالًا لا معنى له، خرج من طرف لسانه بلا تفكير، والعربة موجودة أمام عينيه، ويراني أفتح بابها وأنزل.

- موضوع آخر حضرة الشاويش.

- ماذا حدث؟

- سُرق مولد الكهرباء الخاص بالعيادة.

- آه.. تعال إلى الداخل.

كان كريمًا هذه المرة، حين أجلسني على المقعد الوحيد بالقسم، وكان من الحديد الخشن، وقد انكسر ظهره إلى الوراء، ومنحني جلسة رديئة. حكيت بالتفصيل عن سرقة المولّد الغالي، وتقطيع أسلاك الكهرباء التي تصله باللافتة، وأن السرقة تمت قبل موعد تشغيله بوقت قليل حسب إفادة عز الدين الذي قال إنه صب فيه الوقود، وعاد إلى الجانب الأمامي من البيت لعدة دقائق، ضاع فيها المولّد. لم يسمع أحد أي صوت، ولا كان ثمة شهود متوفرون في المكان.. هذا كل شيء. دوَّن الشاويش أقوالي وأقوالًا إضافية أدلى بها عز الدين، عن حجم المولّد الذي لا يستطيع شخص واحد أن يحمله، وهو يقف منحنيًا على الدفتر يسجل، ويعتدل بين لحظة وأخرى، يشد أو يفرد ظهره ويتأوه، وعرضت عليه أن أعيد له المقعد، لكنَّه رفض بشدة.

- سنرجئ البحث حتى الصباح.. تعال في الصباح.

- لماذا حتى الصباح؟



أسأله وأفكر في ذلك الوقت الطويل الذي سينقضي، ويكون فيه مولد برد قد ضاع بلا أمل في العثور عليه.

- أولًا.. انتهت ورديتي وزميلي تولاب لهذا اليوم، وسيحضر آخران لاستلام العمل بعد دقائق.. ثانيًا نحتاج إلى قاص للأثر حتى يرشدنا، ولا يمكن لأمهر قاص أن يكتشف شيئًا في هذا الظلام.. ثالثًا، زنزانتي مكتظة بالمجرمين ولا يوجد فيها شبر أحشر فيه مجرمًا جديدًا.. هل أذهب به إلى بيتي لو اعتقلته؟.. أم ستستلمه أنت؟

كان يتحدث، وقد تطاير رذاذ من البصاق من فمه، استقر على الدفتر المفتوح، وزنَّت عدة بعوضات في المكان، جعلته يطوّح بيده، محاولًا هشَّها.

كنتُ أعرف أن الشرطة تستعين كثيرًا بقاصي الأثر، وهم في الغالب شيوخ مسنون وذوو دراية، وورثوا المهنة عن آبائهم، وتبدو فقرة الظلام الذي يعوق القص صائبة، لكن لم تقنعني مسألة الزنزانة المكتظة، والتي يترك بسببها مجرم، مطلق السراح، وتضيع أغراض مسروقة، ومسألة نهاية وردية عمله، لأنه يمكن أن يسلم القضية للذي يأتي بعده حتى يقوم بمتابعتها، تمامًا كما نسلم الحالات المرضية لزملائنا عند نهاية المناوبات.

ناديته على انفراد خارج الغرفة، قلت له صراحة، إنني سأموِّل حملته الليلية للبحث عن المولِّد، واعتقال الجاني، وعليه أن يعتبر الأمر عملًا إضافيًا، لأنه سيجري خارج نطاق مناوبته، وتركت له



أن يحدد المبلغ الذي يحتاجه، فمصمص شفتيه وفتل شاربه، وتحسس شريطه المنفلت على كتفه، طلب عشرين جنيهًا له وأضاف:

- لا تنس أجرة تولاب، وقاص الأثر.

ثم صرخ في زميله:

- سلّم القسم للزميلين حين يحضرا، والحقني عند هندوب أوكير قاص الأثر.

كنتُ قد رأيت هندوب أوكير، عدة مرات، في العيادة أو طرق الحي الموحلة، كان من قبيلة (البجا) المترحلة في الشرق، كما يبدو من اسمه، وملامح وجهه المميزة، في نحو السبعين أو أزيد قليلًا، ويقطن في الجانب العشوائي من الحي، حيث البيوت من صفيح، أو قش، أو عشب مفتت، وحيث السكنى خطرة بكل معانيها، لا أمن ولا أمان ولا حياة.الرجال متبطلون حول النيران، يشربون القهوة ويلعبون الورق أو يتسولون في وسط المدينة، وفيهم عصابات شرسة للنهب، والنساء يبدين من خلف البيوت المكشوفة، مستلقيات أو يرضعن، أو حتى يغسلن أجسادهن، والأطفال عراة تمامًا. أحسست بالخوف فجأة، وبإمكانية أن أضيع أو تضيع العربة، برغم طمأنة الشاويش بأن لا خطر يذكر والناس كلها تعرفه وترهبه، وأنني في حراسة السلطة، وفتح جرابه المدلى على الخصر، ليريني السلاح الذي كنتُ أشك بوجوده من قبل، وأراه لأول مرة، وكان مسدسًا قديمًا قد تقشر طلاؤه، ومن واحد من تلك البيوت المتشابهة في بؤسها، خرج إلينا هندوب يحمل عصا



من الشوك، وبطارية ضخمة أضاءها في المكان، وضحك، وكان بلا أسنان.

كانت ثمة دقائق إضافية متوترة قضيناها، حتى لحق بنا تولاب راكضًا على قدميه، ومن ثم ركبنا العربة كلّنا، وانطلقنا إلى بيت عز الدين حيث سيبدأ هندوب مهمته الصعبة بعصا شوك ومصباح في حي لا يعرف الكهرباء ولا توجد به سوى مولدات قليلة عند بعض الناس، من بينها مولدي المفقود.

كنتُ طوال الطريق أفكر في ذلك القاص المسن، عن إبصاره الذي لابد أن يكون قد ضعف بفعل الزمن، وبنيته الضعيفة التي لم تبد لي ستصمد في العدو بين الأزقة حين يعثر على أثر ويتبعه، ونصل في النهاية، لأضطر أن أوقظ الشاويش خضر الذي ردد وهو ينزل من العربة:

- عربة مريحة.. مريحة جدًا.

بدأت أتشوق لمراقبة مهمة قاص الأثر، التي لم أشاهد مثلها أبدًا من قبل، دخلنا إلى الحوش الخلفي الذي كان لحسن الحظ متربًا لم يرصف بالأسمنت، وقف هندوب أمام البقعة الخالية التي كان بها المولّد، تحسس الخرق التي كانت تغطيه من الأتربة، أضاء مصباحه الكبير، وغرس عصا الشوك في الأرض، وبدأ يتشمم الهواء بعمق، وينحني على الأرض يحدق فيها، ويحدث نفسه برطانة لم أفهمها، ولا فهمها أحد سوى العسكري تولاب الذي كان من نفس القبيلة، وبدا راضيًا في النهاية، هز رأسه، وابتسم، وقال لنا تولاب في همس، إن هندوب عرف كل شيء، من دون



حاجة لمفارقة مكانه، والركض في الشوارع، وسيخبرنا باكتشافه.

أخيرًا نطق قاص الأثر، وقد بلغ التوتر حده:

- السارق واحد فقط، طويل وعريض ويده خفيفة، إصبع رجله اليمنى الكبير مقطوع، والصغير متورم.. هل عرفته جناب الشاويش؟

ردد الشاويش: نعم. ورددت، وردد عز الدين والعسكري المساعد تولاب، فقد كان النشال شقيق الزوجة السعيدة سماسم، المفترض أنه تحت مراقبة زوجها ويساعده في سمسرة العقارات، وكنتُ قد لاحظت إصبعه الكبير المقطوع، والصغير المتورم، حين جاءني ذات يوم وهددني، وكان يرتدي صندلًا مكشوفًا.. لكن ليست هذه جرائمه المعتادة التي لم يحد عنها قط منذ احترف ارتكابها على حد علمي، وأجد نفسي مرغمًا أفكر في المحتال الخفي (إدريس علي)، وإمكانية أن يكون النشال القوي قد سرق المولّد لحسابه، ولم أكن ظالمًا في تفكيري، لأن ذلك ما حدث بالفعل.



11

على المصطبة الكبيرة التي رُصفت أمام بيت آل سماسم، عثرنا على الشقي مختار، والملقب في الحي، ودوائر الشرطة، بالخفيف، لسرعته الشديدة في النشل التي لم يضارعه فيها أحد، ولكن من سوء حظه أنه دائمًا ما يضبط، وتعوَّد على السجون أكثر من تعوده على البيت، ويقال إن له غرفة خاصة في السجن الكبير، فيها ملابس، وفرشاة أسنان، وصابون استحمام من أجود الماركات، وإن معارفه من السجانين، يحتفظون بها نظيفة في أي وقت، وبعضهم يلتقيه في الأماكن العامة، ويسأله عن موعد عودته، وربما يطلب منه إحضار سجائر أو مواد تموينية معه، حين ينوي العودة إلى السجن.

كان الخفيف متربعًا على المصطبة، برفقة ثلاثة من أصدقائه، يلعبون الورق على ضوء شموع تحتضر، ويتصايحون. خرجنا من الظلام، ووقفنا أمامهم فجأة، فارتعد الأصدقاء، توقفوا عن اللعب في لحظة حامية، وطالعونا في وجل بينما ظل النشال ثابتًا.. يتأملنا بلا مبالاة.. ثم يسألنا قبل أن يسأله الشاويش:

- ماذا تريدون؟ أنا تبت من السرقة وأعمل سمسارًا



للعقارات عند نسيبي محجوب، لماذا تداهمون بيتي وتزعجون أصدقائي؟

- ومولد الكهرباء الذي سرقته من عيادة الطبيب؟ هذه بداية جرائم من نوع آخر يا خفيف، لقد فضحك الشيخ هندوب.

كان الشاويش خضر هو الذي تحدث، سلاحه القديم مشهر في يده، وأسمع قرقرة غازات في بطنه الناتئ، من شدة الانفعال، بينما ظللت وعز الدين، ساكنين، نراقب الموقف، وهندوب قاص الأثر، يضيء مصباحه ويطفئه في حركات متتابعة، ويغرس عصا الشوك في الرمل أمام المصطبة.

- سرقته؟ من قال إنني سرقته؟..لقد قمت بتسليمه إلى صاحب الورشة لإصلاحه كما طلب مني وأعطاني أجرة النقل.. خمسة جنيهات.. ها هي في جيبي.. أنا تبت، وحتى حين كنتُ أسرق، لم أدخل إلى بيت.. أنت تعرف جنابك.

كان قد نهض واقفًا، أخرج خمسة جنيهات جديدة وذات رائحة مميزة من جيبه، عرضها أمام عيني الشاويش الذي وضع سلاحه في جيبه، صاح في رفاق النشال أن يتفرقوا، ويذهبوا إلى أي داهية، وأمسك بالنشال القوي، لوى ذراعيه خلف ظهره، واقتاده بخشونة إلى حيث عربتي ما تزال أمام العيادة، انحشرنا فيها كلنا وذهبنا إلى القسم الذي كان يخضع الآن لشرطيين آخرين، تسلماه من تولاب، وكان أن فُتح محضر التحقيق بواسطة أحد أولئك



الشرطيين، ورُويت على لسان مختار الخفيف، قصة الاحتيال التي كانت ساذجة جدًا في رأيي، لكنَّها يمكن أن تكون عظيمة ومقتعة جدًا لدى واحد مثل مختار، يمتلك يدًا سريعة، لكنَّه يفتقر إلى المنطق الذي يحلل به الأمور.

كان قد تعرف على شاب نحيل منكوش الشعر، يرتدي ملابس رياضية زرقاء، منذ عدة ساعات فقط، حين قصد بيته، قال إنه صاحب ورشة لتصليح المولدات الكهربائية، والثلاجات، ومن المفترض أن ينقل مولد الطبيب لإصلاحه اليوم، وقد مرض العامل القوي الذي يساعده، فجأة بالحمى ونقل إلى المستشفى، ودلَّه بعض الناس على مختار باعتباره قويًا ويستطيع تحمل ثقل المولّد. حدد له الشاب المكان في الحوش الخلفي لبيت عز الدين، وطلب منه الحرص والتسلل خفية، وألايسمعه واحد من سكان البيت، لأن لديهم امرأة مجنونة، يمكن أن تؤذيه.ودس في يده خمسة جنيهات جعلته ينفذ المهمة سريعًا وبحرص، وينقل المولّد عبر باب العيادة الذي كان عز الدين قد فتحه، كما يفعل دائمًا في ذلك الوقت، إلى الزقاق الثاني حيث كان ينتظره صاحب الورشة في عربة قديمة من نوع البيك أب، كان على ظهرها مولدان آخران وثلاجة، وبوتاجاز مكسور.

كان هذا كل ما لدى النشال شقيق سماسم، الذي كان يتحدث بثقة وأعصاب صلدة لا تشبه أعصاب المذنبين ساعة اصطيادهم، وقد كان يرتدي (تي شيرت) أصفر بلا أكمام، وبدا الوشم الداكن على ذراعه اليمنى، على ضوء الفانوس، كحشرة أسطورية، بعكس



الشاويش الذي كان متوترًا، ويعبث بشاربه الذي غطى فمه كله، ونحّى العسكري المناوب الذي كان يسجل على الدفتر، جانبًا وجلس مكانه على المقعد الوحيد، وهو يصرخ:

- احضر لي صمغًا من أي مكان يا تولاب.. أولادي الأشقياء لا يتركون رتبتي مثبتة على كتفي. سأقتلهم يومًا.

- من أين جنابك في هذه الساعة؟ الناس نائمون.

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساء، وكانت بالفعل موعدًا متأخرًا في حي لا يغري ظلامه بالسهر لمعظم الناس..لكن الشاويش لم يستسلم، صرخ فيه مرة أخرى، وخرج تولاب مترددًا، ولا بد أنه يفكر في كيفية حصوله على الصمغ المطلوب لتكملة هيبة رئيسه. على ملامح عز الدين، ظهر استياء واضح، وخلته يفكر في تلك المرأة المجنونة التي جاء ذكرها، ويحاول نفي التهمة أو إثباتها على امرأة يعيش معها منذ سنوات طويلة، وأنجب منها خمسة من الأطفال.

قلت مخاطبًا الشاويش خضر، وكان ممتلئًا مثلي بقناعة تامة بالقصة الساذجة التي رواها النشال، ساذجة لكن صادقة:

- ما رأيك حضرة الشاويش؟

- أصدق ما قاله الخفيف، لكن ذلك لا يعفيه من السرقة، يا تولاب.. أين ذهب ذلك البيجاوي الدخيل على الشرطة؟، منذ متى تعين الشرطة هؤلاء الحمقى؟

كانت قد مضت أكثر من خمس عشرة دقيقة على غياب



تولاب، بقي فيها العسكريان الآخران صامتين وهما يشاهدان الواقعة التي حدثت أثناء ورديتهما، تسحب منهما بتلك الهمجية، وتخضع لسيطرة الشاويش المرتبك، الذي من المفترض أن يكون الآن نائمًا في بيته أو عالقًا في مهمة أخرى لا علاقة لها بعمل الشرطة. كانت مهمة قاص الأثر العجوز قد انتهت منذ زمن حين عثر على الآثار وحللها، وألصقها على السارق، تثاءب بعمق وطالعني بنظرة كبيرة وهو يشعل مصباحه ويطفئه، وكان عليّ أن ادخل يدي إلى جيبي، أمنحه عشرة جنيهات، تلقاها بيده الجافة، غزيرة العروق كما يتلقى كنزًا، كانت ابتسامته بلا أسنان، ومشيته وهو يخرج إلى الطريق، مشية شاب في العشرين. وحين عاد تولاب أخيرًا، يحمل الصمغ الذي اضطر إلى استلافه من بائع لأكياس الورق التي تستخدم في حمل المشتريات، يستخدمه في مهنته وأيقظه من نومه العميق، كان الشاويش قد بلغ ذروته من العصبية والهياج، وارتكب مخالفة كبيرة للقوانين العسكرية، بنزعه لباقي خيوط الشريط، لتظل إحدى كتفيه عارية بلا رتبة، تناول الصمغ من مساعده، وألقى به في الظلام من باب الغرفة المفتوح.

أخيرًا تفرقنا على موعد أن نُتابع القضية في الصباح أثناء وردية الشاويش الأصلية، أُخذ النشال بعنف ويداه خلف ظهره، وحُشِر في الزنزانة الضاجة بالأصوات والروائح، وسمعنا تصفيقًا حادًا وصفيرًا متقطّعًا، صدر من زملائه المساجين وهم يستقبلونه: أهلا يا خفيف.. شرفتنا يا خفيف، وعلى باب المركز كان عليّ أن أخرج أربعين جنيهًا من جيبي، بالرغم من أنني لم أحصل على

مولدي بعد ولا أعرف إن كنت سأحصل عليه أم لا..نصفها استقر في جيب الشاويش خضر، ونصفها في جيب المساعد تولاب.

إدريس على من جديد بعد أن غاب طويلًا، وهذه المرة في سرقة علنية، وبمساعدة نشال غشيم وغير متخصص في اقتحام البيوت. كان ما يشغلني في تلك اللحظة أشياء عدة من بينها كيفية اهتداء قاص الأثر إلى الإصبع المبتور والمتورم في قدم اللص، وما أظنه كان حافيًا حين سرق، عن تلك الفائدة التي سيجنيها إدريس من سرقة مولد ربما كانت ستكتشف في ساعتها ويسقط هو والنشال معًا، وتمزيق أسلاك الكهرباء الذي حدث، هل كان من ضمن المهمة؟، أم إضافة شخصية من مختار الذي لم أضره في شيء، وزوَّجت أخته المهووسة التي كانت بلا أمل في زواج مستقر، من رجل ذي دخل جيد، وقلب يحب، وقاده الحب إلى غض الطرف عن تلك البيئة المزرية التي كانت تعيش فيها حبيبته. لكن أهم تلك الأشياء كلَّها، كانت إضاءة العيادة التي لن نحقق أي ربح بدونها، وعليّ أن أذهب إلى برد شاندرا مرة أخرى لأشترى أو أستعير مولدًا آخر من عنده، وعليّ أيضًا أن أفكر في تصعيد موضوع إدريس لدى مركز الشرطة الكبير في وسط المدينة، المركز الغاص بالضباط الكبار والصغار والتحريات الصارمة التي لا تشبه تحريات الشاويش خضر، وقد أخبرت الشاويش صراحة وأنا أسلمه العشرين جنيها، ، أنني سأفعل ذلك، فالتوى وجهه، طلب مني في ليونة أن أمهله قليلًا، وسيجد إدريس صاحب المتاريس، لم يكن يريد فشله أن يصل إلى الضباط الكبار



وهو على وشك التقاعد، أراد أن يصلهم نجاحه، ويتقاعد مرفوع الرأس في حفل تكريم يقيمونه من أجله. تأثرت برجائه قليلًا، ولم أصل إلى رأي قاطع.



12

كان مولدي المسروق، موجودًا بكل حسناته وعيوبه، وتلك البقعة الكبيرة من الطلاء الأخضر التي أضافها عز الدين إلى هيكله، تمييزًا له، عند الهندي برد شاندرا.. يا للمفاجأة.

صباح ذلك اليوم كنتُ مشغولًا في المستشفى بشدة، أجريت جراحة قيصرية لسيدة من نساء المجتمع الراقي، كانت تعمل قاضيًا في المحاكم الجنائية، وشهدتُ أمامها من قبل في عدد من قضايا التحرشات المختلفة، عاينت فيها النساء الشاكيات، والقاصرات اللائي سقطن في شراك منصوبة، واكتسبت ثقة القاضية التي تزوجت منذ عام، واختارتني بالذات لإجراء جراحتها، حين تعثرت الولادة. كان عملًا متوترًا، أديته ويداي ترتجفان، وصوتي عاليًا، أصيح به في مساعد التخدير، ومحضر العمليات، والطبيب الصغير الذي كان يساعدني، وأتخيل بلا توقف وجه القاضية بملامحه الجامدة وصوتها القوي يأمر وينهي في قاعة المحكمة، وحين فرغت وأطمأننت على أن الأم وجنينها في حالة جيدة، ونقلا إلى الجناح النظيف الملحق بالقسم، وفكرت في الذهاب إلى برد شاندرا، لأتدبر مولدًا جديدًا من أجل رزق المساء،



دخلت إلى القسم حالة طارئة، امرأة شابة تنزف بغزارة، وتحتاج إلى تدخل سريع، ونقل للدم، وكنتُ أعرفها.. إنها هويدا الشاطئ التي هجرت حياة الفتيات الرقيقات أمثالها، وتخضع لسيطرة الحلمان، وهوسه في حي عشوائي بعيد لا يشبه جمالها.

كانت ملقاة على محفة متسخة، بيضاء وجافة، وترتعد، ولا يبدو من رونقها القديم، سوى ذلك الشعر المموَّج الذي كان الآن مبعثرًا على جانبي وجهها بلا أشرطة تلمه، وقد صحبها عشرة من مريدي الشيخ، وعدد من النساء البدينات اللائي تفوح من أجسادهن روائح الزيت والصندل، وتحمل إحداهن مبخرًا صغيرًا يتصاعد منه الدخان، تقرّبه من وجهها وتبعده وهي تستعيذ من الشيطان الرجيم. لم تكن لحظة مناسبة للارتباك، والتفكير، ولا لحظة ملائمة للتحسر على تلك الفتاة، إنها لحظة عمل ميكانيكي عليّ أن أنجزه ثم أتحسر بعد ذلك.

طلبت تجهيزغرفة العمليات بسرعة، ونقل المريضة إليها، وأرسلت الرجال العشرة إلى بنك الدم الملاصق للمستشفى، لتحديد فصائل دمهم، وسحب ما نحتاجه من الذين يحملون فصيلتها وكانت لحسن الحظ فصيلة سائدة ومتوافرة لدى معظم الناس، ودخلت حتى أوقف الرحم المجنون من ضخّه للنزيف. كان إجهاضًا مبكّرًا، وقطع صغيرة من لحم، بلا هوية ولا ملامح، خرجت، وشقت طريقها إلى سلة الفضلات، وجاء الدم المناسب وكان ست زجاجات شربتها عروق الفتاة، واستعادت حياتها.

لم يأت الحلمان برفقة فريسته النازفة، ولا جاء بعد أن نقلناها



إلى عنبر مزدحم برفقة فقيرات أخريات، وقال لي أحد أتباعه وكان يبدو زعيمًا للآخرين، يحركهم بصوته باستمرار، حين سألته عن زوجها، إن الشيخ في حالة اعتكاف هذه الأيام، لا يخرج من بيته ولا يكلم أحدًا، وحتى عيادته المسائية لا يأتي إليها، وهو الآن مكلف بمتابعة مرض الزوجة حتى تخرج بالسلامة.

فكرت قليلًا في ذلك الاعتكاف الغريب الذي منع زوجًا من القلق على زوجة تنزف والركض خلف المحفة التي تحملها، وإزعاج الأطباء وطاقم المستشفى كله، كما نشاهد دائمًا، وما كان الحلمان في رأيي شيخًا ورعًا، ولكن ممثلًا كبيرًا في مسرحية كبرى، ولعله الآن يفكر في ملء الفراغ الذي ربما تخلفه الفتاة، بواحدة قلقة جديدة. كنتُ أتلفت باحثًا عن العجوز حامد رطل وسط تلك الفوضى، ولم أجده وتذكرت أنه أُبعد من مساعدة الشيخ بعد زواجه الأخير واحتلال الزوجة هويدا لمكانه في العيادة الروحانية، وأظنه سيستغل فترة الاعتكاف هذه، ويروِّج لحلمه في افتتاح عيادته الخاصة.

فجأة سألني الرجل المتزعم لمريدي الحلمان:

- أين طفل الشيخ يا دكتور؟
- أي طفل تعني؟
- الذي أجهضته المرأة.

أخبرته أنه لم يكن في الحقيقة طفلًا متكونًا، وإنما مجرد قطع صغيرة من اللحم والدم، ألقيت فضلات، لا يمكن تمييزها عن أي فضلات أخرى، ورأيت وجهه يرتعد، عمامته الخضراء تهتز على



رأسه، وينادي على أحد رفاقه، يخبره بضرورة إيقاد البخور بسرعة:

- احضروا طفل الشيخ فورًا، نريد غسله ودفنه كما يليق.. لا يصح.. لا يصح أبدًا.

لم تكن ثمة طريقة أخرى لإفهام التابع، ومن ثم كلّفت إحدى الممرضات بجمع بقايا النزيف، فجمعتها في شاشة بيضاء، استلمها الرجل، ومضى بها إلى حي المرغنية.

كانت توجد معضلة جديدة، فقد عرف الرجال الذين تبرعوا بالدم، وكانوا ثمانية، من إحدى الممرضات ممن حضرن عملية غسيل الرحم، أن المريضة لم تأخذ سوى ست زجاجات فقط، وما تبقى من الدم، أعيد إلى البنك مرة أخرى لحقنه في عروق مريض آخر ربما يحتاجه، فتجمهروا أمامي مطالبين برد الزجاجتين المتبقيتين إليهم، وأخفقت كل الجهود التي بذلتها، وبذلها الأخصائي الكبير الذي خرج من مكتبه على صياحهم، في إقناعهم أن الدم لا يرد إلى أحد حين يؤخذ منه، وعليهم اعتباره صدقة قد تنقذ حياة أخرى. كانوا قد تبرعوا لامرأة الشيخ كما كانوا يرددون، ولن يأخذ دماءهم شخص آخر مهما كانت الأسباب. أمام ذلك الإصرار، أرسلناهم إلى بنك الدم مرة أخرى، وأعيد لرجلين منهم ما سحب من الدم، وكانت فنتازيا غريبة، لم أواجه بمثلها أبدًا من قبل. فنتازيا الفضلات التي أعتبرت طفلًا يستحق الغسيل والدفن، وفنتازيا الدم الذي أعيد إلى العروق مرة أخرى.

حين انتصف النهار، كان كل شيء قد انتهى، هويدا الشاطئ استعادت لياقتها شبه الكاملة، وجيء لها بمرآة صغيرة،



تأملت فيها وجهها المريض، ومساحيق خفيفة وضعتها عليه في عجالة، شكرتني بصوت خافت، وسمعتها تؤكد على ضرورة عدم إزعاج الشيخ في اعتكافه، وأنها ستخبره بنفسها حين يخرج. أُوقِد بخور له رائحة جلد محترق في العنبر، واحتلت النساء المرافقات عددًا من الأسرّة الفارغة، رقدن عليها، وعاد الرجل الذي حمل نطفة الشيخ، ليسأل عن موعد خروج المريضة، ولم يكن ممكنًا إخراجها في ذلك اليوم، ولا حتى قبل يومين أو ثلاثة.

كان محل برد شاندرا، في وسط السوق الكبير، مزدحمًا بمعدات الكهرباء، من ثلاجات وغسالات، ومولدات كهربائية، وأجهزة فيديو وتليفزيون، بعضها جديد ما زال بأغلفته، وبعضها مفتوح ومتناثر الأحشاء، وقد كان يستعين بعامل من الجنوب اسمه لادو، كان فيما مضى عداءً معروفًا في المدينة، وتقاعد بسبب إصابة ركبتيه، في ترتيب المكان وأعمال الصيانة، وحمل المعدات الثقيلة، وكان برد العصبي دائمًا، باركًا على ركبتيه يفحص مولدًا مستعملًا من ماركة هوندا، لا بد أنه اشتراه حديثًا، تأملت المولّد، لأجد لطخة الصبغ الخضراء التي وضعها عز الدين، ولا يمكن أن تخطئها العين.

- مولدي...

توقف برد عن فحص المولّد، رفع عينيه في اتجاهي، وكانتا بلون جمر ملتهب، قال:

- نعم مولدك، إنه جيد جدًا ويعمل بكفاءة، لماذا بعته بهذه السرعة؟



- لم أبعه ولكنَّه سُرق.
- سُرق؟ كيف سُرق؟

نهض الهندي من الأرض متثاقلًا، وأسمع صوت ركبتيه تطرقعان تحت جسده الممتلئ، ويتأرجح سلسل من الذهب اللمَّاع، يتدلي من عنقه الغليظ، وينادي على مساعده الجنوبي في عصبية: يا لادو.. يا جحش..سُرق؟.. كيف؟

كان قد اشترى المولّد منذ ساعة فقط من شخص له مواصفات محتالي الخفي إدريس، وقد أخبره بأنه كان في عيادة طبيب واستغنى عنه ببيعه بعد أن استورد واحدًا جديدًا من الخارج، كان سعر البيع رخيصًا أغرى الهندي بدفعه على الفور بالرغم من معرفته بأنه مولدي وكنتُ قد اشتريته منه بسعر مضاعف.

كان يومًا عصيبًا لدى برد شاندرا بلا شك، وقد دخل من قبل في مشاكل قانونية عديدة ومطاردات من قبل الشرطة، بسبب عدم تدقيقه في البضائع المستعملة التي يشتريها من أشخاص عابرين لا يعرف هويَّاتهم، ويتضح بعد ذلك أنها بضائع مسروقة، أو مهربة عبر البحر، أو من صالة الجمارك، إضافة إلى أصله الهندي الذي يمنحه بقاء متأرجحًا في بلاد لا تشبهه وهاجر إليها أسلافه طلبًا للرزق، احتكروا عددًا من مناشط التجارة المهمة، لكنَّهم ظلوا يحتفظون بعاداتهم وهوياتهم، ولباسهم التقليدي، مثل الساري الذي ترتديه النساء، يحتفلون بأعيادهم الخاصة، ويحرقون موتاهم في مقبرة أنشأوها في أحد أطراف المدينة.كانت جلستي في محله في ذلك اليوم، مرحّبًا بها بشدة، لا صوت عاليًا ولا قسم



بالطلاق، ولا مساومة مختصرة، وأرسل الجنوبي لادو، ليحضر لي زجاجة من مشروب بزيانوس، من إحدى البقالات القريبة:

- ادفع لي شيئًا من خسارتي يا دكتور، وخذ مولدك..أرجوك.. لا داعي لإدخال الشرطة بيننا.. لا أحب الشرطة، ولا أريد مصالحي أن تتعطل.. اتفقنا أليس كذلك؟

- لا.. لم نتفق بعد.

أتجرع مشروب البزيانوس على مهل، وأنا أتأمل عينيه اللامعتين، وسلسله الذهبي الساكن على صدره، وأجدها فرصة لا تعوض، للنيل منه وقد باعني المولّد بسعر غال لم أكن أملكه ساعتها، واستدنته من أحد الزملاء.

- ماذا يرضيك يا دكتور، قل لي ماذا يرضيك؟

تتوقف عربة مكشوفة على ظهرها ثلاجة صدئة مربوطة بالحبال على الهيكل، ويهبط السائق، يشرع في فك الحبال، يكرر الهندي سؤاله وعينه غلى الثلاجة القادمة للتصليح.

- ماذا يرضيك؟

- أن آخذ مولدي بلا قرش أدفعه لك.. هذا يرضيني.

- وخسارتي؟

- ستعوضها في سرقة أخرى.. أنا متأكد.

أقول وأنهض واقفًا، وعيناي على المولّد.

- خذه.. والعوض على الله.. يا لادو يا جحش..

يقول البوذي مقلدًا لغة التجار المسلمين، حين يحسّون



بالمرارة، من فشل صفقة ما، وأستغرب من وجوده الطويل في بلاد مؤمنة، ولم يغير عقيدته إلا في القسم الكاذب، وحلف الطلاق.

كان الجنوبي القوي الفارع الطول قد حمل المولّد كما يحمل خرقة من قماش، وضعه في حقيبة سيارتي الخلفية، وعاد إلى الزبون صاحب الثلاجة الصدئة، يساعده في إنزالها، والهندي جلس على ظهر غسالة معطوبة، ومدد ساقيه وهو يشعل سيجارة.

في المساء عاد المولّد إلى الخدمة في عيادة عز الدين، وقد كان الممرض مبتهجًا ويردد إحدى أغنيات قبيلته الراطنة، ولم ينس أن يحضر سلاسل قوية من الحديد، ربط بها المولّد إلى عدد من مواسير الماء كانت ملتصقة بالحائط، بقفل صعب الكسر. جاء عدد من سكان الجوار ممن عرفوا بحادثة السرقة، أو لاحظوا غياب الكهرباء، يهنئوننا بعودة المولّد، وجاءت سماسم السعيدة برفقة عريسها السمار، يتوسطان لديّ حتى ألغي البلاغ الذي سجلته ضد الخفيف التائب، الذي انخدع من محتال ولم يسرق بإرادته، ولم يكن الأمر بيدي ولكن بيد الشاويش خضر، الذي بحثنا عنه طويلًا، وعثرنا عليه في بيته وكان عمله قد انتهى في الصباح. كان شكله مختلفًا وهو يرتدي الجلباب البلدي وطاقية بيضاء على رأسه، ويحمل طفلًا صغيرًا عمره حوالي العامين، لا بد أنه أحد أحفاده، على حجره، يهزه بين حين وآخر. كان يحدثني بينما امرأته متوسطة العمر، تصب لنا الشاي في أكواب مشجرة، من تلك التي لا تخرج من أغلفتها إلا حين يحضر ضيوف مهمون:



- لنسمع أولًا قصة استردادك للبضاعة المسروقة.. ثم نفكر في أمر مختار الخفيف... ها.. أخبرنا.

اختلقت له قصة لا تشبه القصة الحقيقية في أي شيء، استبعدت من تفاصيلها الهندي الغارق في المشاكل، ولا يحب الشرطة، قلت إن المحتال أعاد المولّد إلى بيتنا في النهار بعد أن يئس من بيعه كما يبدو، لقد وجده أحد أفراد الأسرة أمام باب البيت، وأخبروني حين عدت من عملي. كان يستمع ويده التي لا تحتضن الطفل، تتحرك على شاربه الكثيف غير المنسق، وألمح على أحد المقاعد الموجودة في المكان، قميصه العسكري مفرودًا وقد عاد الشريط الذي نُزع بالكامل ساعة الغضب، إلى الكتف مرة أخرى:

- ممتاز.. ممتاز.. هل ستسحب بلاغك ضد الخفيف؟.. سيرحل غدًا صباحًا إلى السجين الكبير، وبعدها سيقدم للمحكمة.. اسمع.. أحذرك بأنني لن أعتقله مرة أخرى، لو عاد وسرق منك شيئًا.

- لقد تاب جنابك.. أنا أتحمل المسؤلية إن حدث منه شيء.

إنه الزوج السعيد، قريب عز الدين، وياله من زوج حصلت عليه تلك المهووسة بلا عناء، لقد كانت تجلس صامتة، تطالعني بين الحين والآخر بنظرة استعطاف، وأرى وجهها مضيئًا، وبطنها قد تكوّر، بطن امرأة حامل في شهرها الخامس.، وكنتُ مستعدًا للتنازل، ووضَّحت ذلك للشاويش خضر الذي صرخ في أحد عياله



التلاميذ أن يحضر ورقة وقلمًا، حتى أكتب تنازلي، وعاد الولد بالورقة والقلم الذي امسكت به، وأحسست بالرعدة، لقد كان نسخة أخرى من قلم زينب، الهدية الرخيصة التي قبلت بها ذات يوم، وجرتني إلى هذه الدروب التي لم أكن أظن انني سأطأها أبدًا، في يوم من الأيام.



13

عاد قريبي فضل الله للظهور مرة أخرى، ليس في العيادة المسائية هذه المرة، ولكن في المستشفى الكبير، مصابًا بجلطة دماغية جديدة، عطَّلت نصفه الآخر الصحيح، وأثَّرت على مركز الكلام في رأسه، فكان حديثه مجرد تمتمات تخرج من حلقه بصعوبة وتفهم بصعوبة.

كانت هويدا الشاطئ قد خرجت نظيفة ومرتبة من عنابرنا، بعد ثلاثة أيام من النقاهة، وبعد أن اطمأننا إلى ارتفاع نسبة دمها إلى المعدل الطبيعي، وعودة الرحم إلى سكونه. وأخبرتني بصوت هامس لا تسمعه النساء البدينات المرافقات، حين مررت للتأكد من شفائها، وتوقيع أوراق خروجها، أنها مسحورة بحياتها الجديدة، وزوجها الرائع، وتتشوق بشدة لإنجاب الأطفال الذين قطعًا سيحملون روعة أبيهم.

- حياة لا يعرفها إلا الذي عاشها.

كانت تقول وتبتسم، وتزداد حسراتي على تلك الرائعة التي لم أرها أو أسمع بها قط بعد ذلك..

مختار الخفيف، أفرج عنه بناء على التنازل الذي وقَّعته في



بيت الشاويش خضر، وجاء برفقة أخته وزوجها، يحمل علبة من حلوى الكرميل، ويطلب مساعدتي في العثور له على جراح من زملائي، حتى يزيل ذلك الوشم القبيح من ذراعه، والذي يذكره بحياة السجون القديمة. وأخبرتني سماسم بحماس، أنها تبحث له عن عروس من معارفهم، تغض الطرف عن ماضيه غير المحترم، ولا تعثر، ويفكرون بتزويجه من فتاة قروية بسيطة، يحضرونها من قريتهم البعيدة في الشمال. وقد قال زوج سماسم السعيد بسخاء قدَّرته، ورفضته بشدة في نفس الوقت، أنه مستعد لإجراء صيانة كاملة للعيادة، وتغيير أثاثها كله، تكفيرًا عن خطأ صهره.

كانوا يتابعون حمل سماسم عند زميل آخر في وسط المدينة، لكنَّهم ما زالوا مصرين أن تضع طفلها في المستشفى، وتحت إشرافي المباشر، وبيَّنت لهم بأن ذلك يسعدني كثيرًا..

- لو كان ولدًا.. سيحمل اسمك، ولو كان بنتًا أيضًا ستحمل اسمك، فقط نضيف تاء التأنيث.

يقول الزوج، ويبتسم، يمد يده خلسة، يلمس بها البطن المتكور في شهره الخامس.

ذهبت لزيارة قريبي في المستشفى حين علمت بمرضه الجديد من والدي الذي سمع به من أقرباء آخرين، زاروه في السوق، كان مطلَّقًا منذ أربعين عامًا، وتعيش زوجته السابقة في الشمال، ومات ابنه الوحيد منذ عدة أعوام، حين غرق في النيل، ويعيش وحده في حي النور غارقًا وسط سمكه الجنتلمان، وشلة أصدقاء من تجار



السوق الصغار، وعمال النقل، والسائقين.

كان راقدًا في قسم الأمراض الباطنية، في واحد من أكثر العنابر قذارة في المستشفى، وربما في العالم أجمع وقد سكن جسده تمامًا بفعل الشلل، وتضاعفت مرات التنفس في صدره، ويحاول أن يكون حديثه مفهومًا وهو يخبرني بما حدث، ولا أفهم إلا بعد جهد كبير من حلقه ومن أذنيَّ أيضًا.

لقد طرد من محله فجأة.. هذا ما حدث. جاءه أحد الأشخاص صباح أمس، يحمل أوراقًا صحيحة وموثقة، تثبت أنه اشترى المحل من مالكه، وما كان المحل مملوكًا لأحد غير فضل الله الذي يعشش فيه منذ السبعينيات. فاجأة المشتري، وأسرع إلى بيته باحثًا عن أوراق المحل القديمة، ولم يعثر عليها حيث وضعها، ولا يتذكر أنه أعطاها لأحد، أسرع إلى المحامي الذي وقَّع عقد البيع والشراء، فأراه توقيعه وبصمة إصبعه، على ورقة تثبت تنازله عن المطعم بكل معداته واسمه ونشاطه التجاري، لصالح شخص اسمه (إدريس علي)، وباعه هذا الأخير للمشترى الجديد، وسقط في مكتب المحامي سقطته التي ترقده الآن في المستشفى.

- (إدريس علي)؟.. كيف أعطيت بصمتك له؟.. هل يعقل ذلك؟..تعطيه نقودًا باسمي، هذا ممكن، ولكن توقيعًا وبصمة؟
- لا أدري يا ابن أخي.. كان يزورني كثيرًا تلك الأيام التي ادعى فيها أنه صديقك، واستولى على المال،



ودخل بيتي عدة مرات.. لا أدري..

يتوقف الكلام المرهق في حلقه الجاف، ويبكي، ولا بد أن مراكزه في الدماغ قد تعبت كذلك، وتزداد مرات تنفسه أكثر، وأحس بالعجز في عدم مقدرتنا إيقاف محتال كبير وثابت الأعصاب كهذا، بلغت به الجرأة أن يبيع مطعمًا، وأقرر أن أقيم الدنيا ولا أقعدها. وبالرغم من أنني لم اكن أرتاح شخصيًا لفضل الله، واعتبرته وغدًا بلا أخلاق، حين ذهب إلى والدي واسترد الثلاثة آلاف جنيه التي أخذت منه، إلا أنني تعاطفت معه، وقد برك الآن بلا أمل في القيام مرة أخرى، وحتى لو حصل على مطعمه من جديد. بصمته على صك تنازل وضعها وهو سكران أو تحت تأثير مخدر بلا شك، لكن ليس ذنبه أن يظهر فجأة في المدينة محتال اسمه إدريس، يخطط بمكر، ولا يصل إليه أحد. أنا سأصل إليه والآن فورًا.

طلبت من رئيس الممرضين أن ينقل قريبي إلى عنبر أكثر احترامًا، ويتمتع ببعض الميزات مثل توفر العناية على مدى الأربع وعشرين ساعة، فعثر له بصعوبة، على غرفة نظيفة بها سريران، يحتل أحدهما مريض من إحدى الأسر الكبيرة التي تعمل في صياغة الذهب منذ زمن بعيد، وكان مثل قريبي تمامًا: جلطة في الدماغ تحدث للمرة الثانية، وبركة شديدة بلا أمل في القيام مرة أخرى.

أخبرت الضابط المتحري الذي استقبلني بود في مركز الشرطة الكبير، وسط المدينة، حين ذهبت، بالقصص كلها، ابتداء



من قلم زينب الهدية، والأسماء المريبة في مصر، حتى ضياع محل السمك الجنتلمان. أخبرته بنتائج حملتي مع العقيد عمر، العسكري الذي يعمل بالجيش، ولم يكن يعرفه، أخبرته بجهود الشاويش خضر صاحب الشريط العسكري المتأرجح، ومعاونه البيجاوي تولاب، وأخفيت قصة الهندي برد شاندرا هذه المرة أيضًا، إكرامًا لوعدي له بأن الموضوع قد انتهى باستعادتي للمولّد. حكيت القصة نفسها عن عودة المولّد إلى البيت، وعثور أحد أفراد الأسرة عليه أمام الباب.

قال الضابط بعد أن فرغ من التدوين، وأجد نفسي مرغمًا على تأمل زيه العسكري، ومحاولة مقارنته بزي الشاويش خضر:

- استغرب من استخدامه لاسم واحد في كل تلك العمليات التي قام بها، المحتالون عادة ما يستخدمون اسمًا جديدًا في كل مرة.
- لعله اسمه الحقيقي، خاصة أنه باع به محلًا تجاريًا ويحتاج إلى إبراز بطاقة أمام المحامي والموثق بلا شك.
- لا شرط.. يمكن أن تكون بطاقة مزورة، ولا يكتشفها أحد.

أضاف الضابط بعد وقفة قصيرة:

- للأسف لا نملك إمكانيات كبيرة مثل مقارنة البصمات، وعرض الصور على البروجيكتور، ونعتمد على الشهود، والتعرف الشخصي، هل تستطيع التعرف عليه



لو شاهدته؟

- طبعًا أستطيع.. ويستطيع ممرضي عز الدين، وأهل العرس الذين أجر لهم عربتي، وقريبي فضل الله الراقد في المستشفى، يتحدث بصعوبة، ومختار الخفيف أيضًا.. و..

- مختار الخفيف؟

كانت زلة لسان، وكنتُ قد أخفيت الدور الذي لعبه الخفيف في سرقة المولّد، والرجل بدا لي تائبًا بالفعل، ويبحث عن امرأة تغض الطرف عن ماضيه، حتى يكمل نصف دينه كما قالت أخته. سؤال الضابط يلح مرة أخرى، وافكر في مخرج:

- لم تقل لي من مختار الخفيف؟
- أحد معارفي ونلقبه بالخفيف من شدة نحافته.
- آه.. ظننته أحد مجرمينا العريقين.

قطعًا سيستدعي الضابط كل الذين ذكرتهم للشهادة، ومن بينهم الخفيف، لكنني سأدّعي أنه سافر، وآمل أن تنتهي القضية ولا يطلب شهادته بعد عودته من سفره المزعوم.

في اليوم التالي كنا نقف أنا وعز الدين، والعريس الحلاق الذي بدأ حياته الزوجية بزفة مسروقة، وحاسبه الشاويش خضر بالحبس ثلاثة أيام من دون محاكمة، بعد أن عاد من شهر عسله، والعجوز حامد رطل الذي تم إحضاره من حي المرغنية البعيد، وهو يقوم بطلاء بيته ورسم الكعبة الشريفة، وكتابة عبارات الحج المبرور والذنب المغفور على بابه، تمهيدًا لبدء نشاطه الجديد في



الطب الروحاني، والمحامي الذي وثق عقد البيع والشراء لمحل الجنتلمان، والذي أكد أن بطاقة البائع كانت صحيحة، ولم يشك في شيء، إضافة إلى الأوراق التي تثبت ملكيته للمكان. كنا نقف في مواجهة طابور طويل من المشبوهين، تم تضفيره بمشقة، ويضم أكثر من عشرين محتالًا معروفًا لدى دوائر الشرطة، بعضهم كان في السجن، وبعضهم مفرج عنه قديمًا أو حديثًا..

وسط هؤلاء يوجد (إدريس علي).. أرجوكم دققوا النظر حتى نريحكم من شره.

يقول الضابط ويومئ إلينا بعينيه، وكانتا عيني صقر.

كنتُ متوترًا وأنا أطالع عيونًا إجرامية مختلفة، تتسمر على وجهي لأول مرة في حياتي، وكذلك لاحظت اضطراب عز الدين والعجوز رطل، ومرت دقائق دققنا فيها النظر حتى في الأيدي المعروقة والممتلئة والجباه المفلطحة والناتئة والمستقيمة، وعقود الخرز الملون التي كانت تحيط بأعناق عدد منهم. عثرنا على الوسخ والقمل، وتشقق الأظافر وآثار الضرب والركل، ولم نعثر على المحتال المطلوب.

- ليس بينهم من نبحث عنه سيدي الضابط.
- هل أنتم متأكدون؟.. هؤلاء هم المسجلون لدينا، الذين يعملون بطريقة محتالكم.. انظر جيدًا يا دكتور..أليس ذلك النحيل المنكوش الشعر، الذي يتلفت بعصبية؟

يشير إلى صبي متسخ، منكوش شعر الرأس بالفعل، يرتدي زي جنود الصاعقة المرقَّع، ويطل من جيبه قلم شبيه بقلم زينب،



كان يحاول إخفاء وجهه ونظرات الضابط تمنعه، وأدقق فيه بعنف، لأكتشف أنه الصبي الذي حاول سرقة عنزة من عائشة، واعتقل بوصفه (إدريس علي)، وأخرجته من براثن الشاويش خضر، حين ظننت أنه مجرد طفل فقير وجائع.. يا للجنون.. الصبي الجائع طالب الثانوي، الذي منحته الكفالة والحرية وعدة جنيهات من أجل وجبة عشاء، مجرم مسجل لدي دوائر الشرطة لدرجة أن يضفر في طابور وسط كل أولئك المشبوهين؟..

- لا.. ليس هو حضرة الضابط.. ليس هو.



-14

ذهبت لزيارة قريبي فضل الله مرة أخرى في أحد النهارات التي لم أكن فيها مزدحمًا بالعمل، وعثرت في الغرفة النظيفة التي نقل إليها بناء على توصيتي، على أشخاص كثيرين، كلّهم من أقارب صائغ الذهب البارك بجوار قريبي بلا أمل في أن يقوم مرة أخرى، كانوا طوالًا وعراضًا، وبيض البشرة، معطرين بعطور راقية، ليست كعطر ماكسي النفّاذ، وتبدو على وجوههم آثار نعمة لا تشبه حي النور وما جاوره من الأحياء، ولا بد أنهم يتعالجون في تلك العيادات المضيئة بفن، لأخصائيين في وسط المدينة، ولم يسمعوا بعيادتي البعيدة، وربما يستغربون من وجود مريض كفضل الله في تلك الغرفة التي فيها مريضهم.

تعرف عليّ أحد هؤلاء الأشخاص، وكنتُ قد التقيته من قبل في قطار الثلاثاء المعروف بزحامه، ومشاكله، وتكدس المسافرين على ظهره، حين كنت طالبًا في الجامعة، وقادمًا من العاصمة التي زرتها في رحلة روتينية، ولم تكن ثمة طائرات منتظمة في ذلك الوقت، تخفف قليلًا عن قطار الثلاثاء، ليسافر بها مثل أولئك



الصُياغ. جاء ذلك الرجل بأسرته كلها قبل أن يتحرك القطار من العاصمة، احتل الغرفة التي كنتُ أجلس فيها وحدي بحجز صحيح وتذكرة صحيحة، وطردني بعد ذلك باعتباري جسمًا غريبًا موجودًا وسط عوراته، غير عابئ بالقانون ولا مفتش التذاكر ولا الورقة الملصقة أعلى الباب وعليها اسمي، ولا توسلاتي الشخصية أمام قامته الفارعة، وصوته الكبير، ويده التي كانت تمتد إلى جيبه بين لحظة وأخرى، ترشو كل من يقترب أو يسأل عن الوضع.

في تلك الرحلة التي لا تنسى، قضيت ليلتي راقدًا مؤرقًا في الممر الضيق لإحدى عربات الدرجة الأولى، تزعجني الأقدام التي تتفادى جسدي الممدد، أو تطأه، وانطبع وجه الرجل في ذاكرتي، ولا بد أن وجهي انطبع أيضًا في ذاكرته، لأنه عرفني على الفور، وبدا مندهشًا وهو يطالع سماعتي الطبية التي علقتها حول رقبتي..

- هل أنت طبيب؟

كان يسألني بينما يده تمتد إلى إحدى الطاولات، تلتقط علبة كبيرة الحجم من حلوى الماكنتوش الإنجليزية الغالية، أكبر كثيرًا من تلك التي جاءت بها سماسم أيام أن كانت مهووسة وقبل أن تتزوج، إلى عيادتي، ، كانت العلبة مفتوحة وقد تناقصت حباتها بشكل كبير، وقدمها إلي مرددًا سؤاله:

- هل أنت طبيب فعلًا؟

- كما ترى..

أقول وأنا أشير إلى سماعتي حول العنق، وثمة ممرضة



مليحة مختصة بتلك الغرفة، وقفت متصلبة أمامي، تحمل بيدها مقياسًا للحرارة، وجهازًا صغيرًا لقياس ضغط الدم، كأنها تدعم قولي.

- لماذا لم تقل ذلك في القطار؟، كنا استضفناك بمحبة يا رجل، أمي تحب الأطباء وتبحث دائمًا عن علاج للمفاصل، وزوجتي تلك التي كانت ترتدي ثوب الشيفون الأخضر، وتكشر في وجهك، كانت ستحترمك بشدة، لو عرفت أنك طبيبًا، إنها مصابة بمرض الذئبة الحمراء، وتبحث عن الاطمئنان عند أي طبيب تصادفه.. تصور أنني ذهبت بها إلى لندن، وما زالت تعذب الأطباء بأسئلتها. اعتذاري الشديد يا دكتور، ولو أن ذلك جاء متأخرًا، كنتُ مضطرًا لذلك السلوك بسبب الزحام، وعدم وجود أماكن لأسرتي في القطار...أرجوك تقبل اعتذاري.

لم أخبره أنني كنت طالبًا جامعيًا في تلك الفترة، لم أتخرج بعد، ولم يكن في مقدرتي إسكات المفاصل عند أمه، أو طمأنة زوجة لا بد أن كل الأطباء الذين استشارتهم، حدَّثوها عن مرض الذئبة الحمراء، ومضاعفاته التي تصيب كل شبر في الجسم لا محالة، وحتى لو انضبط المريض، واستخدم علاجه بانتظام. خطر لي أن أخبره بأن الأمر لا يعدو خللًا في لياقة السلوك، حين تأتي بالعورات طائعًا إلى غرفة رجل لا تعرفه، ثم تخبره بعد ذلك بجلافة، أنه يجلس في وسطها، وعليه أن يغادر ويبحث عن



مأوى آخر غير مأواه الذي دفع فيه سعرًا. أنا مستغرب من نفسي ومسكنتي الشديدة، وكيف غادرت الغرفة في ذلك اليوم؟، وكان عليه هو أن يغادر بعوراته.

- اعتذاري الشديد يا دكتور.

ولم أوضح إن كنت قد قبلت اعتذاره أم لا، ولا مددت يدي والتقطت قطعة حلوى من تلك التي يقدمونها أمام رجلين شبه ميتين، ولا أدري لماذا يقدمون الحلوى أصلًا في المستشفيات، خاصة وأن المرضى أنفسهم، تجدهم في أحيان كثيرة، يبحلقون في الحلوى، وتحس برغبتهم الشخصية أن يتذوقوها كما يتذوقها الزوار.

طلبت من الممرضة المتصلبة أمامي، أن تخلي الغرفة فورًا، حتى يستطيع المريضان أن يتنفسا براحتهما، وعاتبني صيَّاغ الذهب المتجمهرون، بنظرات واحتجاجات هامسة، ووجدت رجل القطار، يتبنى تعليماتي كأنها صدرت له، يمسك بأقاربه من أكتافهم، يدحرجهم إلى خارج الغرفة، وهو يردد:

دعوا المريضين يتنفسان من فضلكم.

كان فضل الله ساكنًا في رقدته، لا يتحرك منه سوى لسانه الذي يخرج الكلام متحشرجًا ومقطعًا، لكن يمكن فهمه، وأخبرني رادًا على استفساري عن صحته بعد ثلاثة أيام من رقاده في المستشفى، بأنه لا يحس بتحسن على الإطلاق، ويعتقد جازمًا بأنه سيموت في أي لحظة من اللحظات القادمة. وبالرغم من ذلك لا يستطيع أن ينسى أنه كان غبيًا، وأن مطعم السمك الجنتلمان قد



ضاع.

- هل وصلوا للمحتال الذي تسبب في مرضي؟
- ليس بعد.
- لا فائدة.. لا فائدة..

يردد ويغمض عينيه، كان وجهه وجه رجل ميت بالفعل، وثمة ازرقاق حول شفته، ولن يفيده مطعم السمك في شيء حتى لو امسكوا بالمحتال، وأعادوا المحل إليه.

أوصيت الممرضة أن تهتم بتقليبه باستمرار، حتى لا يصاب بجروح السرير صعبة الشفاء، وأن تراقب ضغط دمه ومعدل السكر كل عدة ساعات، وكانت توصية مني، لا تعليمات، لأنني لم أكن أعمل في ذلك القسم كما ذكرت، ولا يحق لي إصدار تعليمات، لا أرتاح لفضل الله أبدًا، ولكن أشفق عليه بشدة.. وأتمنى أن يعتقل إدريس حتى يرتاح الجميع، وقد علمت من صديقي العقيد عمر الذي التقيته يوم أمس مصادفة، وكان يتابع الأمر من بعيد، أن حملات شرسة حركها هو بواسطة زملائه الكبار في الشرطة، تغربل المدينة الآن للبحث عنه، لن يكون الأمر مقتصرًا على أحياء الفقر والأحياء العشوائية هذه المرة، ولكن حتى الأحياء الراقية التي ربما يكون المحتال قد اشترى فيها بيتًا وسكنه، أو يتخفى في وظيفة حارس أو أي شيء آخر لا يخطر على البال.



15

أسفرت حملات الشرطة التي استمرت أسبوعًا كاملًا، وغُربلت فيها المدينة كلها، بأحيائها النظيفة والمتسخة، والتي ما تزال مجرد مشاريع لم تكتمل بعد، عن لا شيء. لا يوجد إدريس ولا متاريس.. وفي طوابير العرض الجديدة التي تم تجميعها، وضمت مجرمين محتملين أكثر عددًا وأشد إجرامًا، هذه المرة، واستدعينا أنا وعز الدين، والعجوز حامد رطل والمحامي المشغول الذي وثق بيع مطعم فضل الله، والرجل الذي اشترى المطعم، لم نعثر على شخص نشير إليه بأيدينا، ونصرخ.. ها هو.. ها هو..ولا شخص تتردد أعيننا أمام وجهه كثيرًا، ونقول: يحتمل أن يكون هذا.

كان فضل الله قد رحل عن الدنيا، متأثرًا بتلف دماغه، مات في تلك الغرفة النظيفة، وهو يردد اسم مطعمه الجنتلمان بوضوح شديد، في لحظة الموت، كما أخبرنا أحد مرافقي جاره المريض الآخر، ودفناه في مقبرة المدينة الرئيسية، وأقيم العزاء في زاوية صغيرة ملحقة بأحد المساجد، كانت مخصصة لإقامة مثل تلك العزاءات، وجاء الرجل الذي اشترى المطعم، ليشارك في الجنازة،



ويجلس متصدرًا العزاء، ويعرض أمام الناس كلهم، أن يدفع مبلغًا معقولًا لعائلته، تعويضًا عن الخسارة، لكن فضل الله كان بلا عائلة. كان وحيد أبويه اللذين رحلا منذ سنوات طويلة، وحتى لو مات وهو ما يزال مالكًا للمطعم، لم يكن ليرثه أحد.

تلك الأيام أيضًا، عاد حجَّاج إدريس، بعد أن أدوا فريضة الحج، وابتهلوا إلى الله في مكة، أن يخسف به الأرض أينما وجد. الحاج عوَّال، والزوجة خديجة، والفتاة الخجولة فرجيت التي لم أسمع صوتها أبدًا، وخلتها بكماء، جاءوا إلى بيتنا مرة أخرى بعربة أجرة أقلتهم من ميناء مدينة سواكن الأثرية المهدمة، المخصص لبواخر الحج وبعض شحنات التجارة البسيطة بين البلاد والسعودية، دخلوا البيت كما يدخلون بيتهم الحقيقي، كانوا يحملون هدايا الحج التقليدية، مسابح من الخرز الملون، وسجادات صلاة خشنة وناعمة، وقوارير من البلاستيك فيها ماء زمزم، وصناديق صغيرة من الكرتون، فيها تمر لين وذو طعم مميز، وزعوها على العائلة، وجلسوا باسترخاء في غرفة الصالون، يتحدثون عن تجربتهم المبهرة في أداء الفريضة، وعدد الحجَّاج الذين صادقوهم في خيام منى، وأثناء رمي الجمار، وكيف أن الحاجة خديجة سقطت أثناء الطواف وكادت تموت من دهس الأقدام، لولا أن جاهد الحاج عوَّال والتقطها في اللحظة المناسبة، وغادروا في اليوم التالي فرحين وراضين إلى موطنهم الأصلي في منطقة قرورة الحدودية، واعدين بزيارتنا والنزول في بيتنا، كلما حانت الفرصة، وزاروا المدينة مرة أخرى، وكالعادة تم تزويدهم بالمال اللازم حتى



يصلوا سالمين.

صديقي العقيد عمر، ذو القامة الباسقة، والجسد العسكري القوي، نقل إلى الجنوب مرة أخرى ليسد فراغ قائد من زملائه، مات في مواجهة ضد التمرد، التقيته في النادي المسائي الذي كان يجلس فيه دائمًا، وتعرفت فيه عليه لأول مرة، وكان سعيدًا بنقله، وأنه سيعود للحرب مرة أخرى، بعد أن صيَّرته حياة الركود في الساحل، مدنيًا عاديًا مثل أولئك الملايين الذين تغص بهم المدينة، ودَّعته وأحس بالخوف من سعادته، وألا يعود مرة أخرى، وأخبرته حين سألني عن آخر التطورات في قضية إدريس، أن لا شيء حتى الآن، وما زالوا يبحثون عنه، ولكن بلا حماس. كان ذلك آخر لقاء بيني وبين العقيد عمر، الذي لم أره مرة أخرى ولا سمعت عنه بعد ذلك، ولا أدري لماذا كنت أتوقع أن يرد اسمه في واحدة من تلك المحاولات الإنقلابية التي تحدث بين حين وآخر، ويضيع بسببها ضباط أفذاذ يشبهونه في كل شيء.

تلك الأيام أيضًا، بدأت الإدارة الطبية بالمستشفى، تعد قوائم الأطباء الذين سينتقلون إلى مناطق الشدة، أي المناطق الريفية القريبة والبعيدة من المدينة، بعد أن نالوا تدريبًا يمكنهم من العمل منفردين في تلك المناطق، إنها فترة وعرة جدًا، وتتطلب كثيرًا من الصبر وقوة الاحتمال، وأن تعتمد على رأيك الشخصي في أمور وقرارات تخص حياة البشر، ولا يوجد رابط بينك وبين الحضارة لتستشير أحدًا أو تطمح في معاونة أحد. استدعاني المدير الطبي للمستشفى إلى مكتبه، أخبرني بضرورة انتقالي إلى مناطق الشدة،



وترك لي أن أختار بين عدة مناطق، بيَّنها لي، وشعرت بالبؤس، كنتُ سأفقد عيادتي التي اجتهدت في تربية مرضى دائمين، يترددون عليها، سأفقد بهجة المدن برغم الشقاء الذي أعيش فيه من جراء العمل في قسم التوليد، وسأترك قضية إدريس معلقة، وما زال بيني وبينه ثأر، وفي أحد القبور الضيقة يرقد رجل مات بسبب احتياله. قلت للمدير الطبي، أمهلني عدة شهور لأنجز بعض الأمور المعلقة ثم أذهب، فأبى.. كان دوري قد حان في ترتيب الأطباء الذين يجب أن يعملوا في الريف، وعليّ أن أسلم مهامي في قسم التوليد، لزميل آخر وأمضي.ومن ثم اخترت منطقة طوكر البعيدة، كانت تلائم تدريبي المكثف الذي نلته، وتلائم تخيلاتي أيضًا بما سمعته عنها، حتمًا ستلهمني الكتابة التي انقطعت عنها زمنًا طويلًا.

أخبرت عز الدين بقرب سفري، طلبت منه أن يبحث عن طبيب آخر، يسد الفراغ الذي سأخلفه في عيادته حتى أعود، لم يكن ممرضي العجوز راضيًا، ويحس بالخسارة أكثر مني، ولكن كان الأمر مكررًا باستمرار منذ أن افتتح تلك العيادة، يتعاقب الأطباء الذين يمكثون سنوات أو أشهرًا أو أيامًا معدودة، ويذهبون ليأتي غيرهم، ويظل الممرض، هو الممرض، المرضى المتوفرون في الجوار هم المرضى أنفسهم، ربما ينقصون أو يزيدون، ولكن لا يتغيرون كثيرًا، ستأتي نجفة صاحبة الصداع المزمن، تفتح ملفَّها الضخم الذي تحمله في الحقيبة القماشية الكبيرة أمام طبيب جديد، ستأتي عواطف المسترجلة، تسجل اسمها إدريس، على

دفتر عز الدين، وتتحدث بثقافتها الخاصة التي لا يملكها أحد غيرها في حي النور، عن وسائل تغيير الجنس المتاحة، سيأتي شيخ مثل سيد أحمد، يبحث عن فرصة للزواج والإنجاب، وهو في الثمانين، ويكتشف إصابته بسرطان البروستاتا، حتمًا ستأتي مهووسة جديدة مثل سماسم، تنتهي قصتها نهاية سعيدة أو حزينة، وربما يعود شاطر الكندي مرة أخرى إلى البلاد في عزاء جديد، يلقي محاضرته عن فقر البيئة، وانتشار الأمراض، والافتقار لأبسط القواعد الصحية، ثم يستقل طائرته ويمضي.

لم يكن العثور على طبيب آخر، أمرًا صعبًا، ويوجد عشرات منهم، يحملون أختامًا صنعوها في ورش رخيصة، وأوراقًا خشنة عليها أسماؤهم وأسماء الجامعات التي تخرجوا فيها، يدورون بها بين عيادات زملائهم القدامى، باحثين عن فرصة أو رزق إضافي. سأسلم العيادة إلى أحد هؤلاء وأمضي إلى بلد الخيال والأساطير والكتابة، البلد الذي يضم سحنات شتى، تكونت فيه عبر سنوات طويلة، ولا يعرف أحد كيف حدث ذلك.



16

في أحد المساءات، وكانت قد تبقت ثلاثة أيام فقط على سفري الموعود إلى منطقة طوكر، وكنتُ قد سلَّمت عملي في القسم، لزميل آخر سلَّمته العيادة أيضًا بكل ما فيها وليس فيها، ووعد بردها إليّ بعد أن أعود من شدتي، وظللت متبطلًا أجلس ساعات في استراحة الأطباء الكبيرة وسط المستشفى بلا عمل، أو أزور والدي في السوق، أشاهده يمارس نشاطه التجاري، وسط عشرات بل مئات من المتسولين غريبي الأطوار الذين يترددون على مكتبه أو مكاتب غيره يوميًا بلا انقطاع، يحملون وصفات للدواء، يدّعون أنها تخصهم أو تخص أقاربهم، وعجزوا عن تسديد ثمنها، بعضهم يحمل مرض الجزام جليًا في وجهه وجسده، وبعضهم بلا أيد أو أرجل وأستغرب كيف تسلقوا ذلك السلم الحلزوني للعمارة، الذي تعجز حتى الأقدام الصحيحة عن تسلقه.

في ذلك المساء، طلبت مني زميلة حديثة التخرج، عملت معي ثلاثة أشهر في قسم التوليد، وانتقلت إلى قسم آخر، أن أساعدها في مناوبتها المسائية في العيادة الخارجية، وكنتُ أعرف حجم تلك المناوبات، وما تجره من صعاليك، ومتبطلين، وحاملي



غرائز ملعونة، يبحثون عن فرص للاحتكاك بالنسوة المريضات حقيقة واللائي يصادف وجودهن في العيادة الخارجية. إنه الطابور الطويل بلا نهاية، الذي اصطاد منه (إدريس علي) ذات يوم، مريضة قلقة اسمها هويدا، وسميتها هويدا الشاطئ، ألقى بها في طريقي، وزودني بحسرات كبيرة على مصيرها، لم أكن لأتزود بها لولاه. الطابور الذي لا ينظمه أحد، ولا يعبأ بانسيابه أو عدم انسيابه أحد، والطابور الذي قد يموت فيه مريض حقيقي لأن مئات من الأصحاء يقفون فيه، يصنعون ستارًا ثقيلًا بينه وبين الطبيب الذي ربما ينقذ حياته.

استجبت للزميلة بلا تردد، وكانت فتاة جميلة، ومن أسرة كبيرة، ويسعد أي طبيب من طلبها حين تسأل عن المساعدة، جلسنا على مقعدين متجاورين، على الطاولة القديمة ذات الطلاء الأبيض المقشر، الذي لم يجدد منذ أن صُنعت، أمامنا أوراق صغيرة، نكتب عليها الدواء، وفي مواجهتنا طاولة الفحص التي نرقد عليها المريض، وكانت قديمة أيضًا، وشبيهة بتلك التي رجَّها إدريس في عيادتي، وقال إنها بلا حيل، وسيكلف شقيًا اسمه هارون باستبدالها، وما ظهر إدريس بشخصه، ولا هارون الذي فكرت أكثر من مرة أن أبحث عنه في ورش النجارة المحدودة في حي النور الشعبي. كنتُ أفحص الرجال الأصحاء بغضب، والمرضى برقة، وأترك للزميلة مهمة أن تفحص النساء، بالرغم من تسرّب بعض الصعاليك من أمامي أثناء الزحام، ولجوئهم إلى الزميلة الخجلة المرتبكة، وأسمع بين الحين والآخر صوتها الذي



يطلب مني المساعدة، ألتفت ناحيتها، لأرى ماردًا ضخمًا يتحدث عن مرض مخجل يستحق الخنق لا وصف العلاج.

فجأة دخل إلى الغرفة رجلا شرطة بزيهما الرسمي، كانا شابين يشبهان المساعد تولاب، ويرافقان ثلاثة مرضى قدما بهم من سجن مدينة سواكن الأثرية، المجاورة لمدينة بورتسودان.حيث يقضون عقوبتهم، ومرضوا فجأة اليوم، ولا توجد طوارئ في سواكن.

- وأين السجناء الثلاثة؟

أسألهما وأتلفت، ولا أرى أحدًا بصحبتهما.

- في الخارج تحت حراسة زميلين من عساكر السجون.

يقول أحد الشرطيين، ويرفع صوته مناديًا:

- أحضر السجناء يا دنقا... يا متعال..احضر السجناء.

دخل عسكريا السجون بزي آخر لا يشبه زي الشرطة العادي، كاكي وداكن، ويبدو من قماش أقل شأنًا وتكلفة، وكانا يجران ثلاثة سجناء مربوطين إلى بعضهم بسلسل واحد من حديد، أفسح لهم المتزاحمون مكانًا أمامي، وتوقف المرضى عن الصراخ، أو الأنين، وبدأو يتأملونهم كما يتأملون لوحات فنية في معرض.

لا بد أنني ارتبكت أو جننت في تلك اللحظة، لأنني نهضت من مقعدي وأسرعت إلى أحد السجناء، أمسك برقبته وأصيح.. إنه هو.. (إدريس علي).. إنه هو.

بذل عساكر الشرطة والسجون معًا جهدًا مضاعفًا حتى أمسكوا بي، وأعادوني إلى مقعدي، نهضت الزميلة مندهشة



وغادرت العيادة وهي تهرول، وسحب المرضى المتجمهرون عيونهم من السجناء، سمَّروها علي. وأسمع بعضهم يردد: لا حول ولا قوة إلا بالله.

- خير جنابك.. ماذا حدث؟

يسألني أحد العسكريين، ويخرج من جيبه منديلًا أبيض متسخًا، يمسح به العرق عن وجهه.

- هذا الرجل هو المحتال (إدريس علي) الذي يبحثون عنه منذ زمن طويل، بعد أن احتال عليّ وعلى غيري من الناس، متى قُبض عليه؟، ولماذا لم يخبرني أحد؟

كان المحتال في تلك اللحظة يقف جامدًا وسط زملائه، شعره المنكوش تبعثر قليلًا بفعل إمساكي به، وشده، يرتدي زي المساجين المكوّن من قميص أزرق وسروال قصير أزرق أيضًا، وذلك الحذاء من ماركة باتا، متناسل الخيوط الذي رأيته على قدميه من قبل، وخلته يبتسم للحظة لأن شفتاه انفرجتا، ومن جيب صغير أعلى قميصه، كان يطل قلم زينب واضحًا.

- نعم إنه محتال جنابك، ولكن اسمه ليس (إدريس علي)، كما أذكر.. ما اسمه يادنقا؟

ينبري عسكري السجون الذي اسمه دنقا، بالرد موضحًا:

- اسمه محمود حامد، ومدان بجريمة الاحتيال على عدد من تجار الماشية حين باعهم أراضي وهمية في حي مايو الشعبي، مقابل ماشيتهم، لا بد أنك شبَّهته على شخص آخر جنابك.



- لا.. لم أشبهه على أحد، إنه (إدريس علي) نفسه الذي احتال عليّ وتتابع احتياله على معارفي وأقاربي منذ حوالي العام.. لا يمكن أن أخطئه.. لا يمكن.. منذ متى أُدين وسُجن؟

- منذ خمس سنوات جنابك..أكيد ليس هو.

يوضح دنقا، ويتقدم من المحتال، يضربه عل خده بعنف، والمحتال لا يتحدث، لا يقول شيئًا، وأصاب بدهشة حقيقية. كان الذي يقف أمامي هو (إدريس علي) بلا أدنى شك، سيتعرف عليه عز الدين، والعجوز حامد رطل، والمحامي، وفضل الله لو كان حيًا، سيتعرف عليه سكان حي النور كلهم، وسيأتي الخفيف التائب ليدلي بشهادته، ويمكن أن أجر الهندي برد شاندرا إلى القضية أيضًا غير عابئ بمشاكله مع الشرطة. كان عمل العيادة قد توقف تمامًا، الطبيبة الجميلة فرّت من الموقف، وأنا ما أزال أبحلق في المحتال، ولا أصدق، خمس سنوات في ضيافة السجن، أين كنت منذ خمس سنوات؟.. كنتُ طالبًا جامعيًا بلا شك، لم أتخرج بعد، لكن هل يكون ثمة تطابق لهذه الدرجة؟

عادت الزميلة، برفقة طبيب آخر يحل مكاني، من دون أن تسأل عن سبب تصرفي الغريب، وخرجتُ إلى حوش المستشفى أتنشق الهواء، وأفكر بلا انقطاع. أراقب بوابة العيادة، وقد خرج العسكريون، يجرون السجناء المسلسلين، بعد أن فُحِصوا ووُصِف لهم الدواء، ويمضون بهم إلى عربة حكومية كانت تقف دائرة المحرك أمام الباب.



قال لي الضابط المناوب، بعد أن جلست أمامه ألهث انفعالًا، وأخبرته بالقصة كاملة، والتي عثر على بعض أجزائها مدون في عدد من المحاضرالسابقة، وهو يتأملني من بين دخان سجارته:

- لا فائدة ترجى يا دكتور.. ما دام الرجل في السجن منذ خمس سنوات، فهو في السجن منذ خمس سنوات.. ليس لدينا تكنولوجيا، ولا أي شيء يثبت أنه (إدريس علي).. هذا الرجل بالذات حوكم، وسُجن، ولا يخضع لأي قانون من قوانين الكفالة، أو الإفراج التي تمنح للسجناء الموقوفين مؤقتًا على ذمة قضايا.. سندبر لك طوابير أخرى من المشتبهين، دقق فيها أكثر، لعلك تتعرف على إدريس.

ثم أضاف بعد وقفة، أطفأ فيها سجارته، وأشعل أخرى:

- إن كان يوجد محتال حقيقي اسمه إدريس.



17

غدًا أسافر إلى منطقة طوكر لأبدأ تجربة جديدة، وبي رغبة ملحَّة لرؤية الشاويش خضر، وشريطه العسكري المنفلت على الكتف، قبل أن اذهب. لقد أعجبتُ بالشاويش خضر كثيرًا، أعجبتُ بشخصيته الكاريكاتورية، وملأتني قناعة تامة بأنه من الشخصيات التي ستكتب حتمًا في نص ذات يوم.

وصلتُ إلى حي النور في أول المساء، درتُ بعربتي أمام العيادة من بعيد، كان مولد برد شاندرا يعمل بلا إنسانية في ضخ كهربائه الضعيفة، وأشاهد عز الدين موسى، والطبيب الجديد الذي سلَّمته عيادتي، جالسين على مقعدي البلاستيك المقشرين، أمام الباب بلا عمل، ذهبت إلى قسم الشرطة البائس، ولم يكن الشاويش موجودًا. كان المساعد تولاب، يحمل شريطًا أضيف حديثًا إلى كتفه، وبجواره يقف شرطي آخر، يبدو من ارتباكه بأنه حديث التعيين، لقد ترقى تولاب بلا شك، ولكن أين رئيسه؟

وقف تولاب لتحيتي حالما لمحني أدخل من الباب، مد لي يدًا بدت ناعمة في المصافحة، ثم صرخ في زميله الجديد أن يذهب إلى البقالة القريبة ويحضر مشروبًا باردًا للدكتور، فخرج



الشرطي مرتبكًا، وجلست على المقعد الوحيد المكسور، الذي تنازل لي عنه تولاب.

- أين الشاويش خضر؟
- في بيته.. لقد استلم خطاب تقاعده، وتوقف عن العمل منذ يومين، هل تريد الإبلاغ عن سرقة جديدة؟

كان يقول، وعيناه على الباب، كأنه يتفقد وجود العربة، أو عدم وجودها.

- لا.. أريد مقابلة الشاويش لأمر شخصي،
- تجده في البيت

قال تولاب، وفتح الدفتر الذي بلا غلاف على ورقة فيها رسم مضحك لفتاة بضفائر ممشطة، كان قد بدأه من قبل بلا شك، أمسك القلم الذي كان من ماركة قلم زينب، وبدأ يضيف إلى الرسم خطوطًا جديدة. شربتُ مشروب الفانتا الذي أحضره الشرطي الجديد، على عجل وخرجت قاصدًا بيت الشاويش الذي زرته مرة، وكان لا بد أن اضيع قليلًا في شوارع ضيقة، ونتنة الرائحة حتى أعثر عليه مرة أخرى.

فتح أحد الصبية الباب، وكان الشاويش جالسًا في صالة البيت الخارجية، يرتدي جلبابه البلدي، وطاقية الرأس البيضاء، على حجره ذات الطفل الصغير الذي رأيته من قبل، وقد سال من أنفه المخاط، وقد أضيف تليفزيون متوسط الحجم، إلى الصالة، وكان مربوطًا إلى بطارية ضخمة من بطاريات السيارات، تزوده بالكهرباء، كان مفتوحًا على القناة السعودية الأولى التي يمكن



التقاطها بسهولة في مدينة بورتسودان، خاصة إذا كان الجو صحوًا وبلا غيم، وثمة إعلان عن فندق جديد، تم افتتاحه في مكة قرب الحرم الشريف، كان يبث في تلك اللحظة.

نهض الشاويش خضر واقفًا، ووضع الطفل الصغير على الأرض، وصافحني بحرارة.

كانت جلسة طويلة استمرت ساعتين تقريبًا، تطرقت فيها إلى كل شيء ما عدا موضوع المحتال إدريس، لم أخبره برؤيتي له معتقلًا ضمن مرضى قدموا من مدينة سواكن، واستحالة إثبات أي تهمة عليه وهو في السجن منذ خمس سنوات، سيؤكد ما قاله زميله الضابط في مركز وسط المدينة، بأن الذي في السجن لا بد أن يكون في السجن، وعلينا البحث عن محتال آخر، لن يوافقني رأيي بأن ثمة فساد يحدث، ومجرمين يخرجون من السجون ويعودون إليها، تمامًا كما يخرجون من بيوتهم ويعودون. عرفت أنه ينوي العودة إلى قريته الريفية في شمال البلاد، ليعود مزارعًا كما بدأ، وسيترك أبناءه الكبار في المدينة ليعملوا. لديه أرض صغيرة هناك وبيت من الطين، وأهل عظماء سيعاود وصالهم، ولا شيء آخر. أخبرته أنني سأنتقل إلى الريف كذلك، إلى منطقة طوكر، وأنني سلمت العيادة لزميل آخر، أوصيته أن يهتم به لو زاره يومًا.

كان الطفل قد تحرك في تلك اللحظة تحت قدمي، كان يجر خرقة كاكية قديمة ومتسخة، وتفوح منها رائحة عرق كثيفة، محت روائح الأكل التي كانت سائدة في المكان من قبل، واستطعت أن



ألمح في إحدى زوايا تلك الخرقة، شريطًا عسكريًا منفلتًا.

في الصباح كانت العربة الحكومية التابعة لمستشفى طوكر الريفي، تقلني في الصحراء بعيدًا، وسط خلاء جاف، ورمال متشعبة في شكل تلال عالية، أراقب السراب الذي أخاله ماء، وعددًا من الرعاة، يبحثون عن كلأ لماشيتهم لن يجدوه، وبين الحين والآخر، تمرق بجانبنا عربة مسرعة يتبادل سائقها التحية مع سائقي بإطلاق النفير العالي المتقطع. كان بحوزتي أكثر من عشرين قلمًا من ماركة قلم زينب، اشتريتها من سوق شعبي مررنا به قبل مغادرة المدينة، وأنوي استخدامها في الكتابة.



أعمال أمير تاج السر الإبداعيـة

رواية:

1- كرمكول والحصانة القروية - دار الغد القاهرة 1988

2- سماء بلون الياقوت - أزمنة للنشر عمّان 1996

3- نار الزغاريد - طبعة أولى - شرقيات القاهرة 1998 - طبعة ثانية- دار عزة الخرطوم 2001

4- صيد الحضرمية - طبعة أولى- مركز الدراسات السودانية القاهرة 2002 - طبعة ثانية - مركز الحضارة العربية القاهرة 2004

5- عواء المهاجر - الدار العالمية للنشر - الخرطوم 2003

6- مهر الصياح - طبعة أولى - دار ورد دمشق 2004 - طبعة ثانية الدار العربية للعلوم - بيروت - دار الاختلاف الجزائر 2009

7- زحف النمل - دار العين القاهرة 2008

8- توترات القبطي - ثقافة للنشر أبو ظبي 2009

9- العطر الفرنسي - الدار العربية للعلوم بيروت 2009

10- صائد اليرقات - ثقافة للنشر أبو ظبي - دار الاختلاف الجزائر 2010



سيرة:

1- مرايا ساحلية - المركز الثقافي العربي بيروت - الدار البيضاء 2000- طبعة ثانية - الدار العالمية للنشر الخرطوم - 2003

2- سيرة الوجع - وزارة الثقافة قطر 2003

شعر:

أحزان كبيرة - وزارة الثقافة قطر 2005

ترجمات:

العطر الفرنسي - لارماتان - باريس 2010 - بالفرنسية.



من آراء القراء

يدهشني فيما قرأت لأمير تاج السر انتقاءه لشخوصه وأسمائهم وحكاياتهم، فهو ينطلق من أرض الواقع بأفكار بسيطة وتفاصيل تضعك في قلب الحدث، وتجعلك جزءا منه، من خلال سرده للأحداث اليومية بصورة ممتعة لا تخلو من طرافة.

طيف

هنا الواقع عندما يتجاوز الخيال، بكل ثرائه وخصوبته وتنوعه واستفزازه للكاتب/الطبيب، الذي لا يملك إلا أن يكتب ويرصد .. ويمتعنا في البدء والمنتهى.

إبراهيم عادل زيد

سيرة قصيرة ولطيفة تقرأ في جلسة واحدة، أحببت كيف تتحول شخصيات عاديه يقابلها الكاتب يوميا إلى شخصيات روائية مذهلة.

آمال

القدرة على ادهاشك للنهاية، ان تذهب مع كل حرف له بقصور من الخيال تبنيها ولا تنهار فجأة، هذا هو أسلوبه الجميل ليس قلم زينب هو السر ولكن قلم امير تاج السر هو السحر.

شيرين طلعت

في بورتسودان في الجانب الشرقي منها و في حيّ النور بشكل أدق و بمستشفى بورتسودان قسم النساء و التوليد حيث كان يعمل الدكتور أمير تاج السر طبيباً جاءت هذه السيرة الروائية البديعة.

عبد الله ناصر

عندما يتجاوز الواقع خيالك، فاعلم أنه لا يفعلها في السرد سوى الأمير.

راضي الشمري

مقطع من سيرة ذاتية للطبيب أمير تاج السر شاركنا اياها بما تحمله من سحرية واقعية تتعدد فيها شخصيات محملة بهمها الثقافي و الاجتماعي.

إيمان

كتاب ممتع..مليء بالضحك رغم مرارة القصة.

إيمان عرفات

رواية لا تستطيع ان تنام قبل ان تكملها.

فائقة العوض

مكتبة الفكر الجديد


ISBN: 978-614-02-1153-7

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com